مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث ـ العدد السابع ـ يوليو 2015م

نقد المحاسبي لصوفية عصره

د. مديحة حمدي عبد العال مرسي (*)

مقدمة:

يعد الحارث بن أسد المحاسبي (ت243هـ) أحد أهم صوفية الإسلام في القرن الثالث الهجري، وهو من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر، وعلوم المعاملات والإشارات، وله كتب مشهورة. وهو أستاذ أكثر البغداديين[1]. وقد جعل الغزالي (ت505هـ) مؤلفات المحاسبي أحد أهم مصادر التصوف الإسلامي علي الإطلاق[2]. وقال أبو عبد الله بن خفيف: اقتدوا بخمسة من شيوخنا: الحارث المحاسبي، والجنيد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان المكي؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق[3]. ولعل مكانته الجليلة وحرصه علي مكانة التصوف وقدر الصوفية هو ما دعاه إلي نقد بعض الآراء التي قد تؤخذ علي بعض المدعين للتصوف في عصره. فقد اهتم المحاسبي بالدفاع عن أعمال– القلب– الباطن وإعلائها علي حركات الجوارح والظواهر؛ قائلا: العمل بحركات القلوب في مطالعات الغيوب أشرف من العمل بحركات الجوارح[4].

فقد كان المحاسبي معنياً بتصحيح مسار المتزهدين والمتنسكين، وكذلك دحض الدخلاء والمدعين. فأكد أن مكانة أي فرقة تتحدد –لديه– في مجانبتها لما "كره ربها عز وجل ونهى عنه في ظاهرها وباطنها"[5]. كما لم ينتقد المحاسبي آراء المدعين للتصوف فحسب؛ ولكنه أخذ يمعن التحليل في معاني مقامات الصوفية

(*) مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف كلية الآداب– جامعة الفيوم.

وأحوالهم؛ ليجتث الباطل ويدعم الصحيح. فقد ظهر لدي بعض الفرق– ممن يدعون التصوف– أقوال توحي بالتنسك والتزهد، وهم في ذلك مغترون بأنفسهم، لا يعرفون من طهارة القلب مع الله شيئاً. فمنهم "متشبه بالنساك، متحرٍ للخير، لا غناء عنده ولا نفاذ لعلمه، ولا يُعتمد علي رأيه. ومنهم: منسوب إلي العقل والدهاء، مفقود الورع والتقى. ومنهم:متوادون، علي الهوى واقفون، وللدنيا يذلون، ورياستها يطلبون"(6).

وتحاول هذه الدراسة إبراز الآراء التي استحدثتها هذه الفرق في التصوف. والكشف عن أوجه النقد التي عرض لها المحاسبي ومنها: الآراء التي قيلت في الزهد والتوكل والورع والصوم والخوف والإخلاص. وكذلك تحليل رأيه في الفرقة الناجية، والكشف عما قام به من دور إرشادي فعَّال لإصلاح ما استحدثته كل فرقة من مغالطات.

كما ستحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية: لماذا قام المحاسبي بتوجيه النقد لكثير من الزهاد والنساك في عصره، وإلي غيرهم من الصوفية؟ وما هو نقده لمسلك النساك والزهاد في عصره ؟ وما هو نقده للآراء التي قيلت في الزهد والتوكل والورع والصوم والخوف والإخلاص؟ وما هي صفات الفرقة الناجية في تصور المحاسبي؟ وهل كانت الآراء النقدية للمحاسبي تخدم أصول الدين وروح التصوف؟

ومنهجي الأساسي في هذه الدراسة لتوضيح الجانب النقدي عند المحاسبي هو المنهج التحليلي المقارن من خلال تحليل النصوص الأساسية التي أوضح بها المحاسبي آرائه النقدية لصوفية عصره. وإبراز أهم الآراء التي أثرت فيمن جاء بعده من صوفية الإسلام.

وهذه الدراسة تنقسم إلى الأقسام التالية:

مقدمة.

أولاً: نقد المحاسبي لمفهوم الزهد.

ثانياً: نقد المحاسبي لمفهوم التوكل.

ثالثاً: نقد المحاسبي لمفهوم الورع.

رابعاً: نقد المحاسبي لمفهوم الصوم.

خامساً: نقد المحاسبي لمفهوم الخوف.

سادساً: نقد المحاسبي لمفهوم الإخلاص.

سابعاً: مفهوم المحاسبي للفرقة الناجية.

خاتمة الدراسة.

***

أولاً: نقد المحاسبي لمفهوم الزهد:

لاشك أن أهم ما يشغل المحاسبي– بوصفه أحد أهم صوفية الإسلام– هو سعيه المستمر لتحقيق الإخلاص في جميع أقوال العبد وأفعاله، عبر ظاهره وباطنه، في سره وعلانيته. وانطلاقاً من هذه النقطة اتجه بروح الناقد الواعي للكشف عن بعض ما استحدث من آراء، وما استحدث من مظاهر، علي بعض صوفية عصره. تلك الآراء والمظاهر جعلت أصحابها يدَّعون بها أفضليتهم علي غيرهم من البشر.

ويعد الزهد في تصور المحاسبي هو روح التصوف، تلك الروح التي لا تنفك عن الإخلاص الذي تبتعد بالعبد عن براثن المادة ومتطلباتها الشهوانية، كالعجب

(والكبر)[7] والرياء. فالزهد في تصوره علي وجهين: "فرض، وفضيلة. فالفرض منه: ترك الحرام ورفضه، وأما الفضيلة فهو: الزهد في الحلال"[8]. ولعل ذلك التصور من المحاسبي هو ما دعاه إلي توجيه النقد لبعض الفرق التي ضلت – طريقها الروحي مع الله– في حقيقة فهمها للزهد. إذ كان أحد مظاهر التصوف هو زهد العبد في زيه ومظهره، فقد كان الصوفية الأوائل يرتدون الخشن من الصوف علي اعتبار أنه ترك للدنيا وزينتها.

وقد رأى المحاسبي– **في أول نقد يوجهه إلى الفرقة التي ترائي الناس بزهدها**– أن ارتداء الصوف قد اتخذ منه بعضهم دلالة وحيثية يتفضلون بها علي الناس، ويدللون بها قربهم من الله وزهدهم في حياتهم الدنيا. فاعتبروا المظهر هو سبب اعتراف الناس لهم بالرفعة في الدين والقرب من الله.: ويتضح ذلك "فيما يظهر من اللباس. إنْ لبس الرجل الصوف، يتكبر به علي من هو دونه في اللباس، ألا ترى إلي قول الحسن: (حتى إنَّ صاحب الصوف في صوفه أشد كبراً من صاحب مطرف الخزّ في خزّه). وصدق رحمه الله، إنما يتكبر لابس الخز علي من دونه من أهل الدنيا، ويتواضع لأهل الدين، والذي يلبس الصوف علي الدين قد يتكبر علي صاحب الخز، وصاحب الخز إذا رآه عرف له الفضل عليه، وذل في نفسه له، لما يرى عليه من لباس الصالحين، وآثار الزاهدين في الدنيا. فالعجب والكبر لا يأمنهما عاقل علي حال، فكل ما بان به العبد علي غيره كانت الفتنة إليه أسرع"[9]. فقد اتخذ هؤلاء من لبس الصوف شعاراً لهم وسبباً لتسميتهم فحسب، بل اتخذوا منه دلالة علي قمة زهدهم في متع الحياة الزائفة، وهكذا يتخذ بعض المدعين في هذه الفرقة من الشكل الخارجي قناعاً يزيفون به رياءهم وكبر نفوسهم.

وقد فند المحاسبي ما ظهر من آراء بعض صوفية عصره وأفعالهم في العديد من مؤلفاته. فذكر في معرض حديثه عن الرياء بالزي: "وأما الزي فيرائي العبد

بتشعث الرأس، ومراهة العينين، وحلق الشارب، واستئصال الشعر أو فرقه، يظهر بذلك تتبع زى النبي– صلي الله عليه وسلم، وأثر السجود، وخشن اللباس، وغليظها، وتشميرها، وقصر الأكمام، وخصف النعال، وحذوها علي زي أهل الدين، وترك تهذيب الثوب، وجميع التقشف علي قدره في العبادة وقدر أصحابه"[10]. فالمحاسبي إذاً يحلل مسألة الرياء بالزى الخشن والمظهر الخارجي تحليلاً لا يتجاوز به حدود النقد الموضوعي، حيث يرى أنهم اتخذوا من نوع اللباس وشكله، ومراهة العينين، وشكل الشعر، مسلكاً لهم في خداع بعض الناس. كما إن الواحد منهم يتظاهر باقتفاء أثر الدين في الظاهر وهو– علي الحقيقة– يرائي الناس؛ فيلبس "الصوف والثياب الخشنة الدون، لو قيل: تلبس المروية أو اللينة الجيدة أو الرقاق، لكان عنده قريباً من الذبح، كراهية أن يقول الناس فتر عن طريقه، وركن إلي الدنيا بعد تقشفه"[11].

وإذا كانت مؤلفات المحاسبي من أهم مصادر التصوف التي اعتمد عليها الغزالي في تصوفه؛ فإنه يتفق مع المحاسبي في نقده. حيث أقر– الغزالي– بأن "منهم متصوفة أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله، اغتروا بالزى والمنطق والهيبة، فشابهوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وألفاظهم، وآدابهم، ومراسمهم، واصطلاحاتهم، ... ولم يتعبوا أنفسهم قط بالمجاهدة، والرياضة والمراقبة للقلب في تطهير الباطن والظاهر من الآثار الخفية والجلية، وكل ذلك من منازل الصوفية،ثم إنهم يتكالبون علي الحرام والشبهات، وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة"[12]. فليس من الزهد ترك المال وبذله لاستمالة القلوب أو الشهرة، كما أن التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد[13]. فهؤلاء لم يتعبوا أنفسهم فيما أمرهم الله به وفيه سعادتهم. حيث إن السعادة الحقيقية للإنسان لا تتم إلا بإصلاح الجزء العملي من النفس، فإليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه[14]. ولهذا كان ضرر من يتكالب علي الشبهات والحرام في تصور الغزالي

"أشد من ضرر اللصوص، لأن هؤلاء يسرقون القلوب بالزى، ويقتدي بهم الغير، فيكون سبب هلاكهم، وإن اطلع علي فضائحهم ربما ظن أهل التصوف كذلك، فيصرح بذم الصوفية علي الإطلاق"[15]. وكثير من الصوفية انتقدوا بعض الفرق التي تتكبر بالملبس: فقد حُكي أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا علي بشر بن الحارث فقال لهم:يا قوم،اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزي،فإنكم تعرفون،وتكرمون له،فسكتوا كلهم[16].

كما حاول المحاسبي أن يكشف عن **نقد ثان للفرقة التي ترائي الناس بزهدها** فيما يظهر منها من اللباس والطعام، فلا تزهد إلا فيما يظهر للناس من مطعم وملبس فقط. فيدعي أحدهم أن زهده يدعوه إلي يخرج إلي الحج بغير زاد، معللاً ذلك بأنه زاهد ومتوكل. ومنهم من يدعي حب الله عز وجل ليجله الناس، حتى ينال من ذلك ما لا يبيحه الناس إلا له. وليس ذلك فحسب بل إن المحاسبي يؤكد علي حقيقة هامة وهي أنهم لو أحبوا الله ما تكلفوا فعل الطاعات؛ فالمحب تسقط عنه الكلفة في الطاعة حتى إنه يرى أنها قرة عينه، يتحكم- الزاهد الحقيقي- بمقتضاها في كل أهواء الدنيا. وذلك بخلاف المدعي- للزهد والحب- في هذه الفرقة التي تتكلف فعل الطاعات وهي تثقل عليهم. حتى أن "منهم فرقة تتكلف الرضا والزهد والتوكل والحب لله عز وجل علي غير حقيقة ولا معرفة بما هو أولي بها، يتقلل أحدهم من اللباس والطعام زهداً في الدنيا، وبعضهم يخرج إلي الحج بغير زاد ويدع المكاسب، يؤم التوكل بذلك ومنهم من تخيّل إليه نفسه أنه يشتاق إلي الجنة، ومنهم من يدعي حب الله عز وجل، يلهج بذلك ويجالس عليه، ويصعق عند ذكره. وكل هذه الفرق مغترة بالله عز وجل، تتكلم بما يكره الله تعالي وهي لا تشعر، وترائي بما تعمل، وتتكبر وتعجب، وتأتي كثيراً مما يكره الله عز وجل وهي لا تشعر، لم تعرف التقوى إلا بالاسم ولم تكلفها في جوارحها وباطنها، ولا تعلمها ولم تطلبها، وهي ترى أنها قد قطعت التقوى، وصارت إلي الزهد

والتوكل والرضا، ومعالي الدرجات الكبرى، وهي عامة قراء زمانك، الغالب عليهم إتباع أهوائهم في طاعتهم وتقشفهم"[17].

وهنا تتضح لنا حقيقة نقد المحاسبي لما تتصف به هذه الفرقة من صفات مذمومة، أهمها الكبر والعجب والرياء، وما يستتبع ذلك من صفات نهي الله عز وجل عنها. أما الصوفية علي الحقيقة– كما يصرح المحاسبي– فهم من لا تلتبس عليهم الأمور، لأنهم سائرون في طريق الله بإخلاص وتقوى وزهد وحب، في الظاهر والباطن، في العلم والعمل. فلا يتكلفون الطاعات بل يبيعون الدنيا طلباً لرضا الله، ويهون عليهم كل شيء طلباً لرضاه. وهو الأمر الذي فقدته هذه الفرقة والذي غلب عليهم العجب بالدين. ودليل هذا قول المحاسبي: "فجملة العجب بالدين: حمد النفس علي ما عملت أو علمت، ونسيان النعم من الله عز وجل عليك بذلك"[18]. ولهذا كان الوعيد –في تصور الصوفية– علي الكبر عظيم، والخطر فيه جسيم، والبلوى به شاملة للخلق، إلا علي من وفقه الله واختاره، ورفض العزة في كل أمر، ولاحظ أمر الآخرة، وتواضع لعظمة الله[19].

ولا يكتفي المحاسبي بالنقد الصريح لتلك الفرقة؛ بل يؤمن– شأنه شأن صوفية الإسلام– بعفو الله ومغفرته لمن تاب صادقاً في توبته. فينصح من اتصف بتلك الصفات– المذمومة– أن يسعى بقلبه وروحه إلي التحقق بالتقوى، حيث إنها مفتاح لتفقد العبد لنفسه؛ ومن ثم تحقق الإخلاص في السر والعلن. ولا تتحقق التقوى إلا بأن يتوب العبد ويرجع إلي ربه، فيبدأ بمجاهدة نفسه، فيزكيها بالرياضات الروحية التي تؤهله للإخلاص والتقوى والزهد والصدق في القيام بالطاعات في الظاهر والباطن. فيجب علي تلك الفرقة: "أن ترجع إلي أنفسها بدعائها إلي العزم علي طلب التقوى، وتعريف النفس أنها أصل الطاعات، ولا تزكو الأعمال إلا بها"[20]. وكلام المحاسبي في هذا يعد في مجمله رأي صوفية الإسلام الذين أقروا بأن الزهد لا يتحقق إلا بتزكية النفس مما قد وقع فيه من الرياء والكبر والعجب. فيراقب ربه

ويقوم بحقوقه عليه في جميع حركاته وسكناته، في ليله ونهاره، بسره وعلانيته. وقد ذكر الجنيد: أن الزهد خلو الأيدي من الأملاك، والقلوب من التتبع[21]. ولهذا كان من عرف حقيقة نفسه عرف أعدائه الكامنة ومكانها وكيفية انبعاثها كي يحترز منها؛ فمن أحسن أن يسوس نفسه أحسن أن يسوس العالم، فيصير من خلفاء الله[22]. فقد جعل الصوفية "سبب معرفة العبد ربه، معرفة العبد نفسه... ومن عرف الله بالربوبية قام له بأشراط العبودية ومن عرف الله بالجزاء أوقع نفسه في العناء؛ ومن عرف الله بالكفاية اكتفى به عن كل ما سواه [23].

وهكذا يتبين لنا أن كل من ادعي حالاً من أحوال أهل الخصوص، أو توهم أنه سلك منزلاً منهم، ولم يبن أساسه علي أصول الإيمان واليقين والتزكية والمجاهدة؛ فإنه إلي الغلط أقرب منه إلي الإصابة في جميع ما يدعيه أو يترسم برسمه. ولعل ذلك ما قد فسره الطوسي فيما بعد؛ فصرح بأن: "كل من ترسم برسوم هذه العصابة أو أشار إلي نفسه بأن له قدماً في هذه القصة، أو توهم أنه متمسك ببعض آداب هذه الطائفة، ولم يُحْكِم أساسه علي ثلاثة أشياء فهو مخدوع، ولو مشي في الهواء ونطق بالحكمة، أو وقع له قبول عند الخاصة أو العامة. وهذه الثلاثة أشياء: أولها: اجتناب جميع المحارم: كبيرها وصغيرها. والثاني: أداء جميع الفرائض: عسيرها ويسيرها. والثالث: ترك الدنيا علي أهل الدنيا: قليلها وكثيرها إلا مالا بد للمؤمن منها"[24]. ولعل ما سبق يكشف لنا عن اتفاق واضح بين المحاسبي والطوسي(ت378هـ)؛ حيث ذكر الأخير أن هناك طائفة تعلقت بالتقشف والتقلل، واعتادت الدون من اللباس والقليل من القوت، وظنت أن كل حال غير الحال الذي هم عليه عندهم زلة؛ وقد غلطوا في ذلك، فإن من استحلي ملاحظة الخلق له بذلك، يكون هالكاً ولا يرجى خيره أبداً[25]. وليس أدل علي ذلك من قول الطوسي: "من ظن أو توهم أنه يصل إلي أحوال أهل الحقائق بالتلبس أو

التشبه بهم فهو في غلط"[26]. فقد اتفق الصوفية علي أن علامة الزهد في الدنيا الزهد في الرياسة؛ وبغضها أن لا يخاف المذمة ولا يحب الثناء[27].

وتأسيساً علي ما تقدم يجب علي كل من في هذه الفرقة– في تصور المحاسبي– أن يتفقد نفسه "لأنه قد كان يرى أنه كان من الزاهدين، وهو عند الله عز وجل من الفاجرين، فإذا تفقد نفسه علم أنه كان مضيعاً للتقوى مع تزهده، وأنه كان مخدوعاً مغروراً"[28]. وهنا تتضح لنا أهمية تمسك العبد في تصور المحاسبي بالتقوى. فالمتحقق بالإخلاص والتقوى هو من اشتغل بحقوق الله عز وجل ولم يشغل نفسه بسواها. فإذا تبين له ذلك زالت عنه غرته، وأدرك أن الله مطلع علي ما يكن في صدره من أمور الرياء والعجب. فإذا عرف ذلك أصحاب جميع الفرق زالت عنهم غرتهم[29].

وإيماناً من المحاسبي بأن النقد هو المنهج الذي يميز به الإنسان بين الجيد والرديء؛ اتخذ من دوره في النقد الذاتي لصوفية عصره منهاجاً سديداً؛ يدعم به الجيد ويجتث به الرديء. كما احتوى منهجه في النقد علي نزعة تفاؤلية؛ تؤكد علي أن: التوبة هي خير سبيل للخلاص من ذلك الضلال الذي وقعت فيه. فقرر أنه علي كل فرقة أن: "تتفكر في عظيم حق الله عز وجل، وواجب طاعته، وكثرة عدد ما يلزمها من مجانبة ما كره ربها عز وجل ونهى عنه في ظاهرها وباطنها، هل أحصت ذلك كله، حتى لم تضيع لله عز وجل حقاً، ولم تركب نهياً مما نهي الله عز وجل عنه"[30].

وهذا يعني أن إيمان المحاسبي بالنقد لا يعني تشويه الغير أو سرد الأخطاء؛ ولكنه يعتمد علي إيضاح المستتر، وإظهار الصواب من الخطأ. كما يعتمد علي إسداء النصيحة بالتوبة؛ مما يدل علي أن روح اتجاهه النقدي لم تبتعد عن صلب الشريعة وروح التصوف، فيما أمر الله به ونهي عنه. حيث إنه "بالكتاب والسنة ثبت ذلك عند أهل العلم والمعرفة: أن الرياء محبط للعمل إذا اعتقد عامله"[31].

ويواصل المحاسبي تفنيده لآراء بعض الفرق التي تدعي الزهد والتنسك والتقشف؛ فيكشف لنا عن **نقد ثالث لهذه الفرقة التي تتصنع صفة الأنس بالله تعالي والفرار إليه**؛ فتتكبر علي العامة بالدخول تحت مظلة الشهرة بالخلوة والعزلة والفرار إلي الله. فتحب هذه الفرقة أن يمتدحها عامة الناس بأنها تبتعد عن مخالطة الناس لتخلوا بالقرب من ربها؛ وبذلك تمتاز وتشتهر بين غيرها من الناس. وهي في ذلك– كما يصرح المحاسبي– ضالة مضلة؛ تتخذ من مدارج الكمال الروحي سبلاً للعُجب بين الناس. فهذه "الفرقة قد غلب عليها الاستيحاش من الناس والخلوة، وهي مع ذلك تتصنع بفرارها، وتحب أن تشتهر به، وترتاح قلوبها بذكر العباد لذلك منها، مع تكبرها علي العامة، وعجب بأعمالها، قد عُمِّي عليها أكثر ذنوبها، عدت أنفسها أنها أنيسة بالله عز وجل، مستوحشة من خلقه"[32].

ويظهر لنا من النص السابق أن المحاسبي ينتقد كل من يدعي أن العزلة طوال العمر هي الأسوة في طريق التصوف، أو الطريق الأمثل للفرار إلي الله. فالزاهد الصادق هو الذي يعيش بين الناس ويتعايش معهم ولا يختلف عنهم إلا بسر بينه وبين ربه؛ لا يحب أن يطلع عليه سواه. ولهذا وصف المحاسبي الشخص الذي يرائي الناس بالحب والخلوة والأنس بالله وهو علي غير ذلك؛ كمن "يصف الحب لله عز وجل، وهو عامة ليله ونهاره ناس له عند اعتراض محبته، وإن أراد نفسه علي الخلوة والأنس بربه عز وجل استوحش ذلك، وثقل عليه، فإن خلا بخير، لم يجد للخلوة بمناجاة ربه عز وجل، نوراً في قلبه ولا حلاوة لذكره وإن عرض الأنس بالمخلوقين استراح إلي ذلك، وملأ قلبه حلاوته"[33].

ويتوجه المحاسبي **بنقد رابع للفرق التي أذنبت في حق نفسها واغترت بقيام الليل وصيام النهار والحج**؛ لتعلوا وتتفضل به علي غيرها. فصارت من العُجب بنفسها إلي الحد الذي صارت بمأمن من عملها الذي لم يتحقق فيه شرط الإخلاص والتقوى. واعتقدت– بطريق العجب والكبر وسوء الظن لنفسها– أنها من

المقبولين المقربين لقيامها بمظاهر الدين التي تظهر بها علي الناس. فلم تتحقق بالإخلاص ولم تجتنب محارم الله في المطعم والملبس، والأهم أنها نسيت أن تتفقد أحوال نفسها بما فيها من آثام عديدة عميت بجهلها عنها، فهان عليها التفريط في حق الله. ويصف المحاسبي ذلك قائلاً: "ومنهم فرقة اغترت بالغزو والحج وقيام الليل وصيام النهار، فقد خيل إلي أحدهم أنه من عمال الله عز وجل، والمشتغلين به والذابين عن محارمه. فقد عمي علي أحدهم ذنبه، فهو غير مصحح لمطعمه وملبسه من الشبهات وغير ذلك، وجوارحه منتشرة عليه في أكثر عمره فيما يكره ربه عز وجل، وهو غير متفقد لنفسه، لا يخيل إليه أنه ينبغي لمثله أن يتفقد نفسه، وإن علم منها ببعض التفريط هان عليه لما عنده من العبادة والعلم والغزو والحج. وهو مع ذلك غير متفقد للإخلاص فيما يعمل، ولا عارف به دون تفقده"[34]. وبذلك يرائي أصحاب هذه الفرقة بالعبادة عموم الناس، فلا يتحقق فيهم الخشوع لله بالظاهر والباطن. مما يدل علي التزامهم بمظاهر الخضوع لله أمام الناس فقط، ولا يتجاوزون بها الجوارح الظاهرة. فمن هذه الفرقة من "يرائي بطول الصلاة، واعتدال الانتصاب فيها، والتمكن والتطويل للركوع والسجود، وشدة الخشوع فيها وتحزين القراءة، وأخذ اليسرى علي اليمنى واصطفاف القدمين، والتجافي في الركوع والسجود، ورفع الأيدي للركوع وبعده"[35].

ويؤكد المحاسبي في محاولة منه لنصيحة هذه الفرقة؛ أنها لا يمكن أن تدرأ عنها ما وقع بها من مظلمة في حق ربها وحق نفسها وحق غيرها من البشر؛ إلا بأن تتفقد حقيقة نفسها، وإخلاصها، وتقواها، وتدرك بأنها كانت منشغلة بالمظاهر عن البواطن. فإذا تفقد ذلك أحدهم من نفسه، خاف من عمله ومن لقاء ربه، والتزم التقوى والإخلاص في السر والعلن. ولقد اعتمد المحاسبي في تلك النصيحة علي قاعدة: أن ما يفسد الزهد هو "استرواح النفس وميلها لرخص التأويل من سماع العلم والأقاويل في أخذ ما لا يضر فقده، ودوام السعي في فضول الباح، فولد

عليه ذلك الرغبة الخفية ، فآسر محبة نفسه علي محبة ربه، فكدر عليه العيش في زهده، وأخذت الرخصة من قلبه ومن ميراث زهده بقدر ما رغب إلي فضولها، فولد عليه المسألة في قلبه، فغطت بصيرة القلب، لأن إرادة الدنيا ظلمة القلب، والزهد نور لمن صدق في تأديب نفسه بترك زينة الدنيا التي لا يضر فقدها"[36]. وبذلك يتبين أن حب الدنيا وتضييع حقوق الله التي يجب علي العبد القيام بها في الظاهر والباطن هو الذي يفسد الزهد ويوهنه في تصور المحاسبي. كما أن تمسك العبد بالدنيا هو ما يعيقه عن الوصول للنجاة في الآخرة، والزاهد الحقيقي هو من تحقق بالإخلاص والتقوى. فيدرأ عن نفسه ما كان به من تصنع، ويدرك أنه كان "يخيل إليه أنه لا يعذب مثله، وأنه خاصة الله عز وجل من خلقه هو ومن كان مثله، وقد كان مع ذلك مضيعاً للخوف من الله عز وجل فيما أوجب ونهى عنه، فحينئذ يهتم بالتقوى، ويزداد إن قدر علي ما كان يعمل، رجاء أن يكفر ما مضي من التضييع لحق الله عز وجل والتصنع بعمله"[37].

وإذا كان هناك بعض الفرق تدعي بإظهار تنسكها وورعها أنها الأقرب إلي الله؛ إلا أن الأمر ليس كذلك عند المحاسبي لأن أزهد الناس في الدنيا أرغبهم في الآخرة. وعلي قدر الزهد والخوف والإخلاص– بالقلب والجسد– في الدنيا، تتفاوت درجات ومراتب الزاهدين. فقد حدد المحاسبي أن "تفاوت الزاهدين علي قدر صحة العقول، وطهارة القلوب. فأفضلهم : أعقلهم، وأعقلهم أفهمهم عن الله عز وجل، وأفهمهم عن الله عز وجل: أخوفهم من الله تعالي، وأخوفهم من الله تعالي: أحسنهم قبولاً عن الله عز وجل، وأحسنهم قبولاً عن الله عز وجل: أسرعهم إلي ما دعا الله إليه، وأسرعهم إلي ما دعا الله إليه أزهدهم في الدنيا، وأزهدهم في الدنيا: أرغبهم في الآخرة"[38].

ولعل ذلك هو الذي جعل المحاسبي يوجه **نقداً خامساً لهذه الفرقة التي ادعت أنها من الزهاد وأهل العلم معاً**، وجعلت ذلك أهم أسباب شهرتها بين

الناس. ولشهرة هذه الفرقة بالعلم والزهد ظن العوام بهم الأفضلية والعلو؛ لثقتهم المطلقة بما يقصون ويعلمون. ولكن المحاسبي يؤكد علي أن هذه الفرقة لا تملك إلا أن تدعي قدرتها علي الحفظ والرواية لأحاديث وآراء الزاهدين مع جهلها وخداعها بكل ما تروي للناس؛ "فتري أنها من أهل العلم يحفظ أحدهم كلام المذكِّرين، وأحاديث الزهد والذم للدنيا، لا يعرف معني ما يقول، ولا ما يذكِّر به من الحديث... ومنهم من يذكره لجلسائه وإخوانه غير عارف بما يقول"[39]. وهذا ما جعل المحاسبي ينقد المغتر الذي يدعي أنه من أهل العلم. فقد يغتر أحدهم بما حباه الله من علم فيظن أن مثله لا يعذب، وينسى أن يتفقد الإخلاص في نفسه وقلبه. ولهذا كانت أصناف وفرق المغترين بعلمهم لدي المحاسبي عديدة؛ فمنهم "فرق شتى علي قدر منازلهم فيه. فمنهم فرقة تغتر بكثرة الرواية وحسن الحفظ مع تضييع واجب حق الله عز وجل، وتخيل نفس أحدهم إليه وعدوه أن مثله لا يعذب، لأنه من العلماء، وأئمة العباد الحافظين علي المسلمين علمهم، ويعمى عليه أكثر ذنوبه، فلا يري أن مثله فيما بلغ من العلم يرائي ولا يعجب ولا يتكبر ولا يحسد، وإنما يفعل ذلك الجهال الذين لا يعرفون العلم ولا يحفظونه، فيقل خوفه وحذره من عذاب الله عز وجل ويغفل التفقد لنفسه، إذ كان يري أن مثله لا يعمل بالأخلاق الدنية، لأنه قد ارتفع بالعلم عن ذلك، فلا يتهم نفسه"[40].

ولهذا توجه المحاسبي بنقد حاد لأصحاب هذه الطائفة؛ ووصفهم بأن مصيبتهم أعظم لأنهم علموا من الله ما لم يعلمه غيرهم، ومع ذلك اغتروا بما علموا وظنوا أن علمهم– دون عملهم– نجاة لهم من عقاب الله فيما فرطوا. وتفريطهم يتحدد– في تصور المحاسبي– في أنهم يستصغرون علم وعمل غيرهم، وفي نفس الوقت يستكبرون علمهم وزهدهم. فالمغتر من هذه الفرقة يظن أنه هو الزاهد القائم بالدين دون غيره، وأن الله عز وجل لا يعذب مثله، وأنه لا يعتقد ما كره الله عز وجل، لأن مثله لا يركن إلي ما كره الله عز وجل، ولا يطمع الشيطان في مثله.

ولذلك أكد المحاسبي علي أن تلك الفرقة من أعظم الفرق غروراً وبعداً عن فحوى الزهد والعلم الذي يدَّعونه؛ فقد "يغتر أحدهم بالفقه في العلم بالحلال والحرام، وبالبصر بالفتيا والقضاء، فهو يغتر كغرة الحافظ للعلم وأعظم غرَّة، حتى لا يرى أن أحداً أعلم بالله عز وجل منه، لأنه قد علم الحلال والحرام والفتيا والقضاء، فهو القائم للأمة بدينها، ومَفْزَعُها إليه عند حاجتها، ولولا مثله ضاع الدين واندثر الشرع، وما عُرف حلال من حرام، واستصغر أهل الرواية والحفظ إذ لم يفقهوا الحلال والحرام، ويعلموا الحكم والقضاء. فهو عند نفسه القائم بالدين دون غيره"[41].

ولا ينتفي غرور ورياء هذه الفرقة إلا بمعرفتها أن الله قد أخذ عليهم الميثاق فيما علمَّهم أن يُبَيِّنُوه للناس ولا يكتموه؛ كما أن الزهد يدعو إلي ترك حظوظ النفس برمتها؛ "فإذا علم ذلك زال عنه الاغترار بالله عز وجل، فلزم قلبه الحذر والخوف فيما علم، ليقوم لله عز وجل به، ويتفقد حق الله سبحانه في ظاهره، وباطنه، وعلانيته وسريرته، واهتم بمعرفة ذلك من نفسه فلم يغمّ عليه ذنوبه دون معرفتها، ولم يقنع بمعرفتها دون تركها من خشية الله عز وجل، فهو مهتمٌّ بالعمل فيما علم وَفقه، خائف من المسألة من الله عز وجل عن ذلك"[42].

فقد علل المحاسبي سبب الزهد الحقيقي في الدنيا إلي حب الله والطمع في معرفته والإخلاص والخوف منه. ومعرفته لا تكون إلا بإدراك نعمه السابغة، مع نسبة كل تقصير إلي النفس التي تطمع فتأخذ ولا تؤدي واجب الشكر. وبذلك أقر المحاسبي بأن:"سبب الزهد في الدنيا الصمت إلا عن ذكر الله تعالي، مع دوام الفكر، ويعرف العبد نفسه بكثرة ذمه إياها ويعرف نعم الله تعالي بكثرة ذكرها، وعلي قدر فكرتك في شدة عقاب الله تعالي، يعظم خوفك، وعلي قدر ذم العبد لنفسه في تقصير الشكر يستوجب الزيادة من ربه تعالي"[43]. ومن ثم يكون الزهد الحقيقي في رأي المحاسبي: "بخلع الأيدي من الأملاك، ونزاهة النفس عن

الحلال، والسهو عن الدنيا بكثرة الأوقات. ويكون الرجل متزهداً بثلاثة أخر: حمية النفس عند ترامي الإرادات، والهرب من مواطن الغني، وأخذ المعلوم عند الحاجة"[44].

ولعل ذلك ما حدا بالمحاسبي إلي تقديم **نقد سادس للفرق التي تدعي الزهد والتقوى**؛ فتحب أن تشتهر بذلك، حتى إنها لا تريد أن يجلها الناس إلا لهذه الصفة. فيخيل إلي أحدهم أنه أعبد الناس وأزهدهم وأتقاهم؛ بحيث أن العذاب يرفع عن العباد بزهده وتقواه، وهو غير مدرك أنه من أعداء الله، لعدم تحققه بالإخلاص والتقوى في الظاهر والباطن. وهذه الفرقة استكبرت بنفسها واغترت، وفي نفس الوقت استصغرت من سواها لظنها أنها الفرقة الناجية؛ فاعتقدت أنها من أهل التقوى والإخلاص؛ فاغترت بعلمها وعملها. وقد جمع المحاسبي هذه الأوصاف قائلاً:"منهم فرقة أهل بصر ونظر وتفقد لجوارحها، ولكثير من خطرات قلوبها، يؤُمُّون التقوى ويريدونها، ولا يحبون أن يبدوا بشيء من الأعمال غيرها. فهم مع ما خصوا به من بين العابدين في زمانهم يغترون بها، قد زايلهم الوجل والإشفاق، يخيل إلي أحدهم أن العذاب إنما يرفع عن العباد به، ويدعو الله عز وجل والغالب عليه أنه مستحق للإجابة، غير وجل ولا مشفق أن يكون من أعداء الله، لبعض ما سلف منه، أو لبعض ما يكون منه في ضميره وجوارحه، أو بأمر يختم له به، فيشقى فيموت وهو عدو لله عز وجل علي شر أحواله"[45].

ولا ينسى المحاسبي أن يتوجه بالنصح والإرشاد لتلك الفرقة، ويصف لها طريق توبتها مما اعتراها من غرور قد يوقع بها في المهالك في الدنيا والآخرة. فأكد أنه يجب عليها عرض وجلها وشفقتها علي وجل السابقين، فتنظر أين وجلها من وجلهم، وأين خوفها من خوفهم، وأين زهدها من زهدهم؛ حتى يزول عنها الغرور والكبر. حيث إن تحقق القلوب بالإخلاص يورث فيها "الشفق والوجل، والحزن، وترك الطمأنينة والسكون إلي شيء من أعمالهم. إنما يرجون الله عز

وجل"[46]. ولهذا كان الإخلاص–في تصور المحاسبي– هو ميراث العبد في أعماله وأقواله ومقاصده، في سره وعلنه، بقلبه وجوارحه.

ثانياً: نقد المحاسبي لمفهوم التوكل:

لما كانت أهم صفات العبد القريب من الله هو الثقة المطلقة به سبحانه، ومن ثم صدق التوكل عليه؛ فإن المحاسبي يكشف عن فرقة قد جانبها الصواب في فهم المغزى الحقيقي للتوكل. وهو في تصور المحاسبي يتحدد في أن يتخذ العبد من الحق "وكيلاً في جميع أحواله، راضياً بفضله، شاكراً لآلائه ونعمائه، موقناً بعظمته وكبريائه، راضياً غير مختار... قد أخرج من قلبه التملك والاختيار لنفسه، لموضع الثقة منه بربه، وحسن الظن بنفسه"[47]. ومن ثم يكون التوكل– في تصور المحاسبي– هو روح اليقين، فالمتوكل الصادق في توكله هو الذي سكن إلي اليقين والتوكل والثقة المطلقة بالله. والإنسان لا يكون "متوكلاً علي الله إلا بقطع كل مؤمل دون الله. وكيف لا تسخو نفسك بقطع كل علاقة من قلبك، وتفرغ قلبك للإقبال علي الله، وصدق التوكل عليه، والله حسب من توكل عليه"[48]. فالمتوكل علي الله اكتفي بالله عن الاشتغال بغيره، لأنه علم أن الذي يوصل إليه المنافع هو الله وحده لا شريك له. ولهذا يجب علي كل عبد أن يؤمن بأن من يتوكل علي الله حق توكله هو الذي لا يخاف غير الله، فلا يضطرب لإبطاء رزقه، بل هو من الواثقين بالله عز وجل. ولهذا كان "العارف بالله عز وجل هو الذي يرجع إلى الله، بالتوكل والاستحياء منه أن يراه يحذر مخلوقاً دونه، فالحذر لغير الله عز وجل، نقص من اليقين والتوكل. فأولى به الثقة بالله عز وجل واليقين، لأنه لا ضار ولا نافع غيره"[49].

ومن هنا يؤكد المحاسبي علي أن اليقين وصدق التوكل علي الله– بما فيه من الأخذ بالأسباب– يحقق المعني الإيجابي من الحذر. ولكن ذلك المعني إذا

تنافي مع الأخذ بالأسباب– أي نفيها– فإنه يؤدي إلي ضعف الثقة في الله. حيث إن التوكل والثقة بالله لا يتنافي في تصور المحاسبي مع الحذر من العدو؛ وذلك الفهم الدقيق منه يدل علي عمق استخلاصه للمعني الإيجابي من التوكل وهو الحذر المحمود. فإن المعني السلبي (في الحذر من العدو) يتبلور في الاعتقاد بأن هذا العدو يضر وينفع؛ وهذا سوء فهم من هذه الفرقة وخطأ فادح وقعوا فيه علي حد قوله. ولهذا يتوجه هنا **بأول نقد لهذه للفرقة التي تعتبر أن الحذر لغير الله يتنافي مع التوكل علي الله.**

وقد استنتج المحاسبي منه سوء فهمهم لحقيقة التوكل التي لا تتنافي مع الأخذ بالأسباب، ومن ثم الحذر من العدو. فالصوفي الحقيقي يؤمن بأنه لا نافع ولا ضار إلا الله، وفي نفس الوقت يؤمن بأن الأخذ بالأسباب من أهم شروط اليقين والتوكل علي الله. ولذلك ذكر أن الفرقة التي قالت"إنه من اليقين والتوكل، علي الله تعالي: ألا يحذر عدو الله، فهذا غلط منهم أيضاً لأن أولياء الله تعالي لم يحذروا العدو باعتقاد منهم أنه يضر أو ينفع دون الله عز وجل. ولكن طاعة لله عز وجل مع اعتقاد أنه لا تضر خطراته إن عصم الله عز وجل. ولا ينفع حذره إن خذل الله عز وجل"[50]. وبهذا يتضح أن اللبس الذي وقعت فيه هذه الفرقة يتحدد في أنها اعتقدت أن الحذر من عدو الله والأخذ بالأسباب يتنافي مع الثقة والتوكل علي الله. وهنا يؤكد المحاسبي علي أن حقيقة التوكل علي الله لا تتنافى إلا مع الأمن من غضب الله وسخطه [51].

وحقيقة التوكل عند المحاسبي هي: أن الحق سبحانه وتعالي قد أوجب "التوكل وفرضه علي الخلق، لئلا يتشاغلوا عن العبادة بما يحتاجون إليه من ذلك، فكفاهم بذلك المؤنة، وأثبت به عليهم الحجة وفرض عليهم فرائض أحكمها"[52]. فالذي يجب علي الناس في جملتهم من التوكل المفترض عليهم، "التصديق لله عز وجل، فيما أخبر من قسم وضمان الكفاية وكفالتها، من سياقه الأرزاق إليهم،

واتصال الأقوات التي قسمها، في الأوقات التي وقتها، بتصديق تقوم الثقة به في قلوبهم... فإذا صح هذا العلم في القلوب، وكان ثابتا في عقود الإيمان، تنطق به الألسنة إقراراً منها بذلك لسيدها، وترجع إلي ذلك بالعلم عند تذكرها، وقع الاسم عليها بالتوكل"[53]. فالمؤمنون في جملتهم موصوفون بالتوكل علي الله تعالي، بما اعتقدوا– كما وصفه المحاسبي– من اعتقادات القلوب، وإقرار الألسنة، بأن الله تعالي قال: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ. فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) [54].وليدعم مقاصده –استدل أيضاً– بقوله سبحانه:(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) [55].

وقد استدل المحاسبي هنا بهذه الآية الكريمة التي توثق المعني الصحيح للتوكل في الإسلام؛ حيث إن التصديق بالأرزاق– في تصوره– فضل من الرحمن يجود به علي الناس، فإذا قدرها الله لا يعترضها مخلوق. ولكن هذه الثقة الكاملة بالله وصدق التوكل عليه لا يتنافي مع الحركة في طلب الرزق. لأن الحركة هي محض سعي من العبد لينال به ما ضمنه الله له من رزق. فقد "أقسم جل ثناؤه بنفسه أنه قسم الأرزاق بين الخلق، وأمضي الضمان بالكفاية لهم، فكان علي الخلق تصديقه فيما أخبر وأقسم. فمن صدق في ذلك، كان بتصديقه وإيمانه مؤمناً متوكلاً. ومن كذب أو شك، كان بذلك معانداً كافراً، بما قص علينا جل ثناؤه في كتابه"[56]. وبهذا المعني يوثق المحاسبي معني التوكل الحقيقي؛ مؤكداً في ذلك أن الحركة في طلب الرزق– بما فيها من الأخذ بالأسباب– لا تتنافي مع صدق التوكل علي الله. وهو بهذا ينتقد الفرقة التي ادعت أن التوكل يتنافي مع الحركة في طلب الرزق والسعي لتحصيله. ولقد أوضح الطوسي– أيضاً– أن شروط الكسب: أن لا يركن إلي كسبه، ولا يرى رزقه من كسبه، ولا يكون في كسبه مغتنما، بل ينوى بذلك معاونة المسلمين، ولا يشغله كسبٌ عن أوقات الصلاة

المفروضة، ويتعلم العلم حتى لا يأكل الحرام[57]. وقال أبو سعيد الخراز: من ظن أنه إذا بذل الجهد يصل إلي مطلوبه فهو متعنّ، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فهو متمنّ[58].

ويزيد المحاسبي في نقده لهذه الفرقة، فيستدل علي رأيه ونقده بما كان عليه رسول الله صلي الله عليه وسلم، وما كان عليه أكابر أصحابه، رضي الله عنهم من سعي وحركة وتوكل في نفس الوقت. فمن التزم من العباد بما يرضي الله لا تضره الحركة في الأخذ بالأسباب، كما لا تضره ما فيه من طباع مختلفة خلقها الله في كل البشر بالفطرة. حيث إن ما في "الطباع من الحركة لا يخرجهم مما أوجبنا من التصديق لهم، لأن الله تعالي لم يستعبدهم بإزالتها، وإنما استعبدهم بإقامة الطاعة، وأخذ الشيء من حيث أباح أخذه. فإذا أقاموا ذلك، وكانوا للموافقة لله عز وجل في الحركات متبعين، فلا تضرهم صفات الخلقة... لأن الله جل ثناؤه أباح للخلق الحركة في الطلب، ولم يكلفهم إزالة ما في الطبع"[59].

وهنا يتبين أن المحاسبي قد انتقد هذه الفرقة لأنها ادعت التوكل من غير وقوف علي شروط التوكل وآفاته وحقيقته، فسلكوا الطريق الذي لا غاية لهم فيه إلا ما يرضي نفوسهم، فاختلط لديهم التوكل بالتواكل، وبهذا وقعوا في فهم خاطئ لحقيقة التوكل والأخذ بالأسباب. ولعل ما قاله المحاسبي هو ما ذهب إليه الغزالي من نقده؛ حيث قرر أن منهم: "فرقة أخرى جاورت هؤلاء فأحسنت الأعمال، وطلبت الحلال، واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد، والتوكل، والرضا، والحب من غير وقوف علي حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها"[60].

وهكذا ينتقد المحاسبي الفرق التي تدعو إلي الابتداع في التوكل، فتدعو إلي التشدد في ترك ما أمرهم الحق به من الحركة في طلب الرزق بحجة التوكل علي الله. فاعتقدوا أن "التوكل بترك الاكتساب علي العيال والأهل والأولاد، والخروج في

السفر بلا زاد، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين،وبتحريم الدواء"[61]. وهم في ذلك يعتقدون أن التوكل يتنافي مع أي حركة في طلب الرزق، وهذا ما دفع المحاسبي إلي وضع عدة شروط لتوضيح الحركة المحمودة من ناحية، وبيان اتفاقها مع صدق التوكل علي الله من ناحية أخري؛ منها:

1- أن الله سبحانه لما فرض التوكل علي خلقه، وأباح لهم الحركة في ذلك. اشترط في ذلك عدم التجاوز لحدوده سبحانه. فقد "حد للخلق حدوداً في الحركة، وفرض عليهم فروضاً أحكمها، وبينها في كتابه، وعلي لسان نبيه عليه السلام"[62]. فمن كانت حركاته في طلب الرزق لا تدعوه لتجاوز الحدود يكون لله عز وجل مطيعاً. أما من يتعدي في الحركة ما يجب عليه من الصدق، ينقص بذلك في توكله[63].

2- أن الحركات المحمودة قد ترفع في الدرجات والرتب؛ إلي مراتب خواص الخواص من المؤمنين المتوكلين. الذين يمتازون بطهارة قلوبهم، ودوام الذكر وكثرة التقرب بالنوافل، وبذل الجهد والطاقة طلبا لرضا سيدهم؛ "فكانوا بذلك عن حركات الطبع متجافين متشاغلين، وبكل داع يدعوهم إلي غيره مستثقلين، وعن كل فترة تميل بهم إلي الراحة نافرين"[64]. متوكلين علي الله الذي ضمن لهم الأرزاق؛"فلم يكن السعي في ذلك قادحاً في صفاء الذكر القائم لهم، ولا منقصا ما خصوا به حال قرب القلوب ومراتبها، ... فهذه صفات حركات الصديقين والأولياء في المكسب"[65].

وبعد توضيح الحركة المحمودة؛ توجه المحاسبي **بنقد ثان لتلك الفرقة التي تركت الحركة بما فيها من سعي لطلب الرزق**؛ وزعمت أن الجلوس عن الطلب أفضل عندهم من الحركة. واحتجوا في ترك الحركة بأن ذلك طعناً وشكاً فيما ضمنه الله للخلق من أرزاق تضمن كفايتهم؛ وهي فرقة شقيق وأصحابه. فقد "زعم

شقيق فيما يروى عنه أنه كان يقول: إن الحركة في الكسب معصية. وذلك أنه قال: لما ضمن الله تعالي الرزق والكفاية، كانت الحركة شكاً فيما ضمن فحمل الأمر في ذلك علي رأيه، وقال فيه بزلله، فخالف الكتاب والسنة، وما عليه أكابر أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم، وجله التابعين من بعدهم"[66]. وهم بذلك قد طعنوا في المتكسبين، بل وجعلوا من ضعفهم عن القيام بما أمر الله به فضلاً علي غيرهم. فقعدوا عن الحركة في طلب الرزق وأخذوه من غيرهم؛ "فكان مقامهم في ذلك مقام من تنزه عن شيء من كسبه، وأخذ من كسب غيره ما هو أشر منه وأخبث في الطعمة، فغلطوا فيما أقاموه دينا"[67].

وقد جعل المحاسبي نقده لهذه الفرقة قائماً علي دعائم من كتاب الله تعالي، فاستدل بقوله تعالي: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)[68]. وبذلك أوجب المحاسبي الحجة عليهم من كتاب الله. أما الحجة عليهم من سنة رسوله، فقد جعلها واضحة عليهم"من فعل النبي صلي الله عليه وسلم، وما كان أكابر الصحابة عليه، وذلك أن الله جل ثناؤه جعل رسوله في أعلي الدرجات، وأرفع المنازل، وأتم المعارف، وأكمل العلم،... وكذلك حركاته وسائر أعماله، جعلها الله علي قدر الموضع الذي جعله فيه"[69]. وكذلك كانت أعمال أصحابه رضوان الله عليهم، علي قدر مواضعهم.

وقد انتقد المحاسبي شقيقاً البلخي وأصحابه من وجهين:

<u>الوجه الأول</u>: الذي أثبت به ضعفهم عن فهم حقيقة التوكل، فيتحدد في أخذهم "للذي تركوه من أيدي غيرهم، فإن كان أخذهم لذلك من أيدي الأقوياء

الذين كسبوا الشيء عندهم علي حكم كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم، فقد سقط عنهم العذر في القعود، وعليهم طلب الشيء من حيث طلبه هؤلاء"[70].

الوجه الثاني: الذي أثبت به ضعفهم عن فهم حقيقة التوكل، فيتحدد في كونهم قد تركوا التكسب لضعفهم "عن القيام بإحكامه غيرهم، فقد أخذوا ما تركوا، من أيدي أقوام يمكن عليهم التعدي في الطلب، والتجاوز للحد من الكسب"[71].

وبذلك يكون المحاسبي قد كشف لنا عن وجهة نظره النقدية لتلك الطائفة– شقيق وأصحابه– التي "زعمت أن القعود عن الحركة أفضل عندهم وإنما الحركة في ذلك رخصة لضعفاء الخلق عن القعود، حتى يكون الوقت عليهم"[72]. و"هذا قول قد تبين خطؤه من وجوه شتي... فما دل عليه العلم، وثبت عليه المعرفة وذلك أن الله جل ثناؤه لما دعا إلي الثقة به، والتوكل عليه، بين العلم عما أراده من ذلك، والذي بين العلم عنه من ذلك من معني الثقة: أن تكون القلوب لله عز وجل مصدقة، وتكون بوعده موقنة، وتكون إليه في كل حال ساكنة، قد أغناها بضمانه عن النظر إلي شيء دونه. فإذا ملك خاصة القلوب ذلك، وأقرت به الألسنة وحذره العلم بالله تعالي والمعرفة بالله جل وعز من أن يميل إلي شيء دونه. فأمنت القلوب في التوكل في حقيقة من حقائقه، وفي مقام شريف من مقاماته"[73].

وإذا كان صدق التوكل علي الله يتحدد– في تصور المحاسبي– بأن يجمع العبد في عمله بين دور يقين القلب وسعي الجوارح؛ بحيث لا تزيده الحركة في السعي إلا ثقة ويقين بما في يد الله من عطايا. وبذلك تكون زيادة الحركة المصحوبة باليقين مرتبطة بزيادة التوكل علي الله ومن ثم زيادة درجات القرب من الله. ومن هنا يكون "التوكل محض الإيمان، لأنه فريضة علي العباد، ولا يكون الإيمان إلا بتوكل، والتوكل يزيد وينقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص، والناس يتفاضلون في التوكل والإيمان علي قدر اليقين"[74]. فإذا كانت "القلوب بسعي

الجوارح في ذلك زائدة بسعيها، متمكنة في مرتبتها، ولا ينقص السعي عليها حالها ولا يجرها ذلك إلا إلي ما يقدح في ذكرها، فكان هذا السعي علي ما وصفنا رائدة لها في مواصلتها، في القرب إلي علو الدرجات في قربها"[75]. ولهذا يؤكد المحاسبي أن المتوكل علي الله قد استغني بالمعطي المانع عمن ليس بمانع ولا معط، فسكن قلبه عن الاضطراب، ووصل إلي روح اليقين، وعلم أن الله حسبه وبالغ أمره[76].

وبذلك يتبين فضل السعي والحركة علي القعود بما أوضحه المحاسبي، تلك الحركة– بما فيها من الأخذ بالأسباب– لا تنفك عن اليقين وصدق التوكل؛ حيث إنها تحدد مراحل الترقي في مراتب القرب من الله. وهو بذلك يتفق مع العديد من الصوفية ومنهم ذو النون المصري(245هـ) الذي صرح بأن: التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة، وإنما يقوى العبد علي التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه[77]. وقد أكد سهل بن عبد الله: أن من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان[78]. وهذا ما اتفق معه أيضاً القشيري (ت465هـ) مؤكداً أن التوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب، بعدما تحقق العبد بأن التقدير من قِبَل الله تعالي، وإن تعسّر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره[79]. فحقيقة التوكل: أن لا يظهر فيك انزعاج إلي الأسباب مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلي الحق مع وقوفك عليها[80]. وهذا الفهم الدقيق لحقيقة التوكل هو الذي أكده فيما بعد ابن عطاء الله السكندري (ت 706هـ) لأن المتوكل في رأيه من عرف ربه؛ ومن عرف ربه راقبه وحاسب نفسه[81]. والمحاسبة والمراقبة توثق حقيقة التوكل. والأمر بالتوكل لا يتنافي مع الأخذ بالأسباب، بل يدل علي إثباتها[82].

ثالثاً: نقد المحاسبي لمفهوم الورع:

انتقد المحاسبي الفرقة التي جانبها الصواب في إدراك معني الورع؛ فعنده أن الورع يتحدد معناه في المجانبة لكل ما كره الله– عز وجل– من قول أو فعل؛ بل والحذر من تضييع ما فرض الله عز وجل. ولذلك كان "جميع الورع في ترك ما يريبك إلي ما لا يريبك... وترك حزازات القلوب في باطنها، والتفتيش عن مثاقيل الذر في ظاهرها"(83). حتى يتبين للعبد حقيقة ما يترك وما يفعل "فإن تبين له ما كره الله عز وجل جانبه بعقد ضمير قلبه، وكف جوارحه عما كره الله عز وجل، ومنع نفسه من الإمساك عن ترك الفرض، وسارع إلي أدائه"(84). ولهذا كان ما يشين الورع ويوهنه في تصور المحاسبي هو "الرغبة في الدنيا، وكثرة الطمع فيها، ودوام الحرص عليها، بجمع ما لا يضره فقده"(85). لأنه مرتبط بصلاح النفس؛ وصلاح النفس لا يتحقق إلا إذا علمت أنها مربوبة متعبدة، لا نجاة لها إلا بطاعة ربها ومولاها. فالمؤمن الحقيقي يدرك أن "أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء. والدليل علي محاسبة النفس العلم بما تعبد الله عز وجل به خلقه في قلوبهم وجوارحهم"(86). فمن ترك ما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه مما كره ربه جل وعز، فقد احتجب عن النار واستوجب الحلول في جوار الله.

ويكشف المحاسبي عن مزيد في نقده للفرقة التي تدعي الورع وتأتي بنقيضه، من عدة وجوه منها: الوجه الأول: اهتمامهم بإظهار الورع بالتمسك بالنوافل حتى يفوته وقت الفرائض؛ فيطيل أحدهم الوضوء حتى يضيع منه وقت الفرض. ويدع أحدهم فريضة الحج مخافة أن يكون خالط ماله مال حرام. وكذلك اهتمامهم بإظهار الورع في المال حتى يضيع ما أحله الله من جزاء حلال علي العمل، مما يجعلهم يضيعون قوت عيالهم. ويصف المحاسبي تلك الأمور من هذه الفرقة بأنهم تعرضوا لوسوسة وريبة من الشيطان؛ فقد "يطلب العبد الورع والنوافل، فيضيع الفريضة وهو لم يتمها، وقد يطلب العبد الورع بتضييع الواجب بترك المال

وهو حلال غلطاً، خشية ألا يحل له أخذه، والصناعة والتجارة والميراث الحلال، يريد بذلك السلامة فيضيع العيال، فيجيعهم ويعريهم، ويسخط عليه الوالدان ويضيعهما وهو يقدر علي المال أو العمل الحلال. وكذلك يدع الحج مخافة أن يكون خالط ماله حرام من غير أن يعرف شيئاً بعينه فيه... وقد يضيع الفرض للوسوسة تعرض من الشيطان، فيدع الفرض إرادة أن يؤديه علي ما أمر، ومخافة أن لا يجزيه أداؤه إلا بذلك، يحسب أن ذلك عليه هو الواجب، فيكثر الوضوء ويطيله، حتى يذهب وقت الصلاة كطلوع الشمس لصلاة الفجر، أو كفوت الجمعة، وكذلك في الغسل من الجنابة"[87]. وهنا يؤكد المحاسبي أن الوسوسة من الشيطان هي التي جعلت الأمر يلتبس علي أصحاب هذه الفرقة.

أما الوجه الثاني: فيوجهه المحاسبي للفرقة التي اقتصرت في تحققها بالورع علي ما ظهر منها للناس، دون أن تتفقد باطنها. وهذه الفرقة لا تري الورع إلا في المطعم والملبس "ومنهم فرقة لا ترى أنه يجب عليها من الورع في زمانها إلا الورع في غذائها من المطعم والملبس"[88]. وهذه الفرقة تنسى الإخلاص وتنسى التقوى، وتظن أنها قد وصلت إلي أعلي الدرجات بما ظهر منها من مظاهر خارجية فقط. فيضل الواحد منهم عن تفقد أحوال نفسه مما هي فيه من آفات "فيضمر ما يكره الله عز وجل: من الرياء والعجب وغيره، ويغتاب ويهمز ويلمز، ويتكبر علي العباد، ويسيء بهم الظن، ويشمت بالمصائب والبلاء... وهو يعد نفسه من الورعين العالمين بالله عز وجل، وهو عند الله عز وجل من الفاجرين والجهال به"[89].

وهنا يكشف لنا المحاسبي عن حقيقة اتجاهه النقدي الذي سلكه ليميز بين الصواب والخطأ؛ وهو بهذا يبني ولا يهدم. بدليل أنه يحاول– باستخدامه لمنهجه في النقد– أن ينصح ويوجه ويكشف عن الأكاذيب. بدليل أنه لا ينحي نفسه من النقد؛ إيماناً منه بأن الخطأ قد يقع فيه أي إنسان؛ ولكن المخلص هو من يربأ

بنفسه من المهالك ويعود بنصيحته لنفسه ولغيره إلي الصراط المستقيم. فكان يحذر نفسه وغيره قائلاً: "لأن عامة قراء زماننا مغترون مخدوعون، نعد أنفسنا المتقشفين المتنسكين، ولعلنا عند الله من الفاجرين الفاسقين، وكيف نأمن أن نكون كذلك، ونحن لا يأتي علينا يوم إلا جددنا فيه ذنوباً لم نكن من قبل نضيفها إلى ما خلا من الذنوب بالأمس"[90]. ولعل ما سبق يكشف عن حقيقة نقد المحاسبي لغيره من الصوفية في موضوعية يراد بها إصلاح ما وقع فيه صوفية عصره من أخطاء.

رابعاً: نقد المحاسبي لمفهوم الصوم:

إن مجاهدة النفس عند الصوفية– ومنهم المحاسبي– تعتمد في المقام الأول علي فطم النفس عن شهواتها وتكالبها علي لذات الجسد؛ ولهذا فقد حرصوا علي كسر الطباع بالصوم. فإذا تم "كسرها بإدمان الصيام، انكسرت قوى طبعها– التي نالتها– من الاغتذاء بالطعام الذي كانت تألفه بالدسم"[91]. فكلما "ألح عليها الجوع ذلت وخشعت"[92]، واقتربت من خالقها. فالصوم– في تصور المحاسبي– يعتمد علي الإخلاص والتقوى، ومن ثم مجاهدة النفس. فالمجاهد هو من "أتعبها بكثرة الصلاة، وأجاعها وأعطشها بصيام"[93]. ولهذا يؤكد المحاسبي أن من "يرعى جوارحه في صومه، ويتحرى طعام إفطاره، ويتفقد جميع أحواله، فهو أوزن عملاً ممن يدع في صومه الطعام، ولا يتورع في صومه عن الآثام. وعساه يفطر علي ألوان الشهوات الممتزجة بالسحت والتبعات"[94].

ولعل ما أبرزه المحاسبي في تحليله لقيمة الصوم هو ما دعاه إلي نقد بعض الفرق. فمنها التي تتظاهر بالصوم لتشتهر به بين الناس؛ بينما هي غارقة في الرياء لا تعرف للمعنى الحقيقي من الصوم سبيلاً. حتى إن الواحد منهم ما يبتغي من صومه إلا الشهرة والكبر بين الناس، فيصوم مع الناس؛ "ولو كان وحده

لأفطر، جزعاً أن يفوقوه بالصوم، فينظروا إليه بعين النقص، فيصوم فلو خلا لأفطر وما صام ولا تطوع بذلك الصوم"[95]. ومن هؤلاء كذلك من يخرجه صومه عن القيام بالطاعات التي فرضها الله؛ حتى إنه "يتجوع ويقلّ المطعم يتزهد زعم بذلك. فيخرجه ذلك إلي ما لا يحل له من الضجر والعجز، ويقطعه من معاشه وعما هو أولى به من الطاعات التي ندب الله عز وجل إليها، ولم يفرضها عليهم، أو يترك الاكتساب لأهله وولده ووالديه"[96].

ولعل مراد المحاسبي من نقده لهذه الفرقة هو إظهار الخطأ الذي وقعت فيه. حيث جعلت من الصوم سبيلاً تشتهر به بين الناس، وإنْ منعها بمشقته عن القيام بباقي الفرائض. فقد يرائي أحدهم الناس بما يظهر عليه من علامات مشقة الصوم وضعفه؛ فيغتر "ويرائي بالنحول وبالاصفرار ليتوهموا فيه الاجتهاد والأحزان أو الخوف. ويرائي بضعف الصوت، وغور العينين، وذبول الشفتين، ليستدل بذلك علي الصيام"[97]. وبهذا يؤول به الصوم– الذي يرائي به الناس– عن العجز عن إتيان باقي الفرائض. وذلك ما دفع المحاسبي إلي التصريح بأن من "دعا الناس إلي الجوع فقد عصي الله، وهو يعلم أن الجوع قاتل، وقد فعل ذلك بخلق كثير من زوال العقل، حتى تركوا الفرائض"[98].

وإذا كان الصائم لا يخلو من ضعف، فقد صرح المحاسبي بأن الإفطار– في غير الفريضة– أولي لمن كان الصوم يخرجه عن القيام بباقي الفرائض. ولذلك كان "الإفطار خدعة إلا أن يكون ما ينقطع به عنه أفضل من الصوم، ويكون لا ينقطع عن مثله في الإفطار"[99]. ولعل ذلك ما دفع السهروردي– فيما بعد– إلي انتقاد من لم يفهم الدلالات الروحية المقصودة من الصوم، وأهمها قهر النفس وكبح جماحها، ومنعها من الاتساع[100]. كما دفع ابن باديس– فيما بعد– إلي انتقاد أدعياء التصوف الذين أفسدوا جوهره الأصيل، فاقترفوا بصنيعهم هذا جنايات نسبوها إلي الصوفية. إذ ليس من الإسلام –كما يقول ابن باديس– تحريم

الطيبات التي أحلها الله، كما حرم غلاة المتصوفة، وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها"[101].

كما كشف المحاسبي لنا عن نقد ثان لبعض الفرق التي تدعي بأنها بلغت بالصوم والجوع أعلي درجات القرب من الله. حيث اعتقدت هذه الفرقة بأنه "لا مرتبة أعظم من الجوع، لأنه سيد أعمال البر"[102]. وهذه الفرقة نسيت–كما يؤكد المحاسبي– أن الجوع لا يظهر أثره إلا عند الشبع. وعندئذ سيظهر من كان يطلب بجوعه الشهرة بين الناس، ومن كان الجوع والصوم لديه طريقاً واصلاً إلي رضا الله. فصاحب الحال الأخير قد يصل بصومه إلي مرتبة عزيزة المنال لا يصلها إلا من خلص عمله من الرياء والعجب؛ حيث إن الصوم مبناه الإخلاص والخشوع. والخشوع لا يتحقق إلا لمن "يجعل الصوم طريقاً واصلاً إلي الري والشبع يوم الحاجة والفقر إلي الله عز وجل، وليس شيء أعظم مرتبة من الفقر إلي الله عز وجل"[103].

ومن هنا يتبين لنا أن أفضل الجوع عند المحاسبي هو (جوع المنع)؛ وذلك ما دعاه إلي انتقاد (جوع التكلف) في هذه الفرقة. فقد وصف المحاسبي جوع التكلف بأنه جوع من أجل الشهرة؛ لأن العبد يتكلف القيام بفعله، ولهذا يفتضح أمره بالشبع. وذلك بخلاف جوع المنع الذي لا يصل له العبد إلا بطاعة وخشوع. و(جوع المنع) هو الجوع الخالص لوجه الله تعالي، وليس لغيره شريك فيه؛ ولذلك يطلق المحاسبي عليه جوع الترهب لله تعالي "فأفضل الجوع جوع المنع وجوع التكلف يفتضح بالشبع، وإن كان في الصوم جوع فإنما معناه الترهب لله عز وجل،... وهذا هو الترغيب"[104]. ومن كان علي هذا الفهم لحقيقة الصوم– في نظر المحاسبي– فإن الكلفة في الطاعة تسقط عنه؛ لأنه تحقق بالمقاصد الروحية من الصوم بالقلب والجوارح؛ "فارتفعت عنه السآمة، وزايلته الملالة، لما في صدره من الجلال والهيبة لربه"[105]. ووفقاً لذلك يتضح أن المحاسبي قد رغب في جوع

المنع؛ فبه يظهر فضل"الجوع للاجئين إلي الله، الذين استرهبتهم الخدمة، بعظيم قدر المعرفة. والله تعالي مانع ومعط، إلا أنهم يختارون ذلك ورعاً وخوفاً، وتقية من عسر الحساب"[106].

خامساً: نقد المحاسبي لمفهوم الخوف:

لما كان العلم مرتبطا بالعمل عند صوفية الإسلام؛ فإن المحاسبي يؤكد علي أن العالِم لا ينسلخ من علمه إلا إذا افتقد الخوف من الله، وحل محله الأمن. والخوف لا يكون بالرياء والعجب وحفظ كلام المتكلم فقط، دون استشعار لقيمة العلم الذي يحفظه العالِم. فمن يعتقد الرياء ينسلخ ويغرق في العجب والتكبر، ولا يعرف قلبه الهيبة والخوف من الله. وافتقاد القلب للخوف يجعل العبد يغرق في شهوات النفس، فلا يتجاوز بخوفه مرحلة التكلف والشهرة بصفة الخوف فقط. ولا يتجاوز بمعرفته "معرفة اللسان من الكتاب والعلم، وحفظ كلام المتكلمين، ممن عمل منهم بما يقول، فهو يصف الإخلاص لمعرفته بجملها ويصف الخوف لمعرفته ما الخوف، لا أنه تكلف الخوف حتى خاف الله وحذره. ثم وصف الخوف بعد القيام به، وكذلك جميع أخلاق الدين، وكذلك يصف الرياء بجملة المعرفة له ما هو في العلم، وما دل عليه العلماء، من غير تفقد له من قلبه، حذراً من الله عز وجل أن يطلع علي قلبه وهو معتقد للرياء"[107].

ولا يقف المحاسبي عند هذا الحد من النقد؛ بل يتوجه لعلاج هذا النوع من الرياء المسمى برياء الخوف. فقرر أن نفي الرياء بالخوف في هذه الفرقة لا يتحقق للعبد إلا إذا "تفقد نفسه عند القيام بالفرض وترك الذنب، فوجدها مضيِّعة لفرض الله عز وجل غير خائفة، وراكنة إلي الذنب غير فازعة منه... فلما فقد الخوف عند تضييع الفرض وركوب الذنب، علم أن الخوف زائل عن قلبه، وأن الأمن حال فيه"[108]. وهنا يؤكد المحاسبي أن حالة الأمن تنافي سلامة القلب،

فأمن القلب يجعل العبد يركن إلي عمله، ولا يؤدي حق ربه في تفقد نفسه وتخليصها من الرياء والعجب. فصفة الخوف– في هذه الفرقة– لا تتجاوز بها مرحلة القول وليس الفعل. وذلك يتضح من قول المحاسبي أن: "أول منازل الخائفين الخوف من الذنوب، فإذا بَلَى نفسه واختبرها عند أول منازل الخائفين، فافتقد الخوف منها، فلم يجده، علم أنه اغتر بما يصف بلسانه، وأنه ليس من أهله"[109].

ومعني هذا أن العبد في تصور المحاسبي لا يتحقق بالمعني الحقيقي من الخوف إلا إذا توجه بقلبه وروحه وجسده إلي ربه، فيدرك "أن فريضة كتاب الله: العمل بحكمه في الأمر والنهي. والخوف والرجاء لوعده ووعيده. والإيمان بمتشابهه والاعتبار بقصصه وأمثاله. فإذا أتيت بذلك، فقد خرجت من ظلمات الجهل إلي نور العلم، ومن عذاب الشك إلي نور اليقين"[110]. وهذا ما أقره كثير من الصوفية بعد المحاسبي؛ فاتفقوا علي أن الخوف متعلق بالنفس والقلب. فإذا خافت النفس وخشيت، وجل القلب واستحيا، وسكنت الجوارح، وملك القلب جوارحه، ووقف بها علي الحدود. وإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فورات الشهوات، وافتقد صاحبها الخوف والخشية والحياء من القلب والنفس[111]. فالخائف هو الذي لا يخاف غير الله. ومعناه لا يخافه لنفسه، وإنما يخافه إجلالاً له، والخوف للنفس خوف العقوبة. فإن العبادة مبناها الخضوع والذل والافتقار، وأتم مظهر لها أن يخاف ويطمع كما يذل ويخضع[112].

سادساً: نقد المحاسبي لمفهوم الإخلاص:

حرص المحاسبي علي تأكيد قيمة الإخلاص كضرورة لمن يراعي حقوق الله في نفسه وفي غيره من البشر. فقد آمن بأن الإنسان كي يصح إخلاصه لله "لا يخطر بقلبه خطرة تدعو إلي القول بلسانه، فيعتقد الهم بها، ولا يأذن للسانه أن

ينطق بها، حتى يتبين له في العلم بالكتاب والسنة، أو في إجماع الأمة أن الله عز وجل، أمر بها أو ندب إليها وأباحها"[113]. والإخلاص هو انقطاع العبد إلي الله عز وجل والرجوع إليه من فعله. قال الجنيد: الإخلاص ما أريد به الله من أي عمل كان. وقال رويم: الإخلاص ارتفاع رؤيتك من الفعل[114]. فكل ما ليس خالصا لوجه الله لا يثيب عليه ولا يتقبله، فالرياء شرك ومحبط للعمل[115].

ولا يتحقق الإخلاص الحقيقي في تصور المحاسبي إلا بشاهد العلم من الكتاب والسنة وإجماع العلماء، **ولهذا توجه بالنقد للفرقة التي لم تتفقد الإخلاص في نفسها**. فاتخذت هذه الفرقة من العزم علي الإخلاص– بدون التحقق به فعلاً– سبيلاً لها في عجبها ورياءها بصفة الإخلاص؛ حيث إنها وصفت نفسها بالإخلاص قولاً ولم تتحقق به فعلاً. فهذه "الفرقة الغالب منها تقديم العزوم لله سبحانه بإخلاص العمل له في كل ما تعمل، والعزم علي الرضا والتوكل، وما أشبه ذلك وترك الكبر والعجب... فلما سخت أنفسها بالعزم علي ذلك ونحوه، عدت أنفسها من أهله، والقائمين لله عز وجل به، بعزمها علي الإخلاص"[116].

ولا ينسى المحاسبي أن يتوجه بالنصح والإرشاد لهذه الفرقة؛ بإعلاء مبدأ الإخلاص– والذي يتحدد هنا– في أن الإخلاص لا يعني العزم فقط؛ بل لابد من تحققه بالنفس والقلب والجسد. فالنفس قد تتكلف العزم بالقول، وهي بالفعل لاهية في شهواتها التي تمنعها من العمل. فقد يغتر وينخدع الإنسان بالعزم فقط، فيغفل عن نفسه ولا يتفقدها هل التزمت بما عزمت أم هان عليها الفعل فتركته. ولأجل هذا يؤكد المحاسبي في نصحه لهذه الفرقة علي ضرورة "معرفتها أن العزم علي العمل ليس بالعمل، وأن العزم علي العمل أقل مؤنة علي النفس من العمل، لأن العزم لا تعب فيه ولا مؤنة علي النفس، ولا ترك لذة بعد مقدرة عليها، أن النفس قد تعزم ثم تضيع العمل، كراهة تحمل المؤنة والتعب، وقد تعزم علي ترك اللذة ثم تواقعها عند الظفر، لأن المحنة عند المقدرة أشد علي النفس، لأن شهوتها تهيج

إذا أحست بلذتها ومحبتها وظفرت بها"[117]. فعندما تتحقق بالإخلاص تعمل بما أوجب، وتترك ما كره، وهذا يتطلب تفقد النفس، والوفاء بما عزمت عليه.

ولم يكتف المحاسبي بنقد الفرقة التي اغترت بالإخلاص لمجرد العزم عليه فقط؛ بل يتوجه إلي نقد الفرقة التي اغترت بستر الله لها مدعية أنها من المخلصين. فاتخذت من الستر طريقاً للرياء بالإخلاص؛ فظنت أن الله يستر عليها لأنه يحبها ولا يعذبها. مما جعل هذه الفرقة تزداد في عجبها بنفسها، فاعتقدت أن الستر لم يكن إلا ولها عند الله عز وجل منزلة عظيمة من الإخلاص. وهو ما لا يتحقق عند هذه الفرقة فقد "اغترت بطول ستر الله عز وجل عليها، وإمهاله لها، فلما دام لها الستر فلم يظهر للعامة منها إلا خير، وأثنت عليها وعظمتها، اغترت بذلك، وظنت أن ذلك لم يكن إلا ولها عند الله عز وجل منزلة عظيمة، وأنه محب لها، وهي مع ذلك كثير تخليطها، كثيرة التصنع للعباد، ولا تعري من العجب بعملها والكبر علي من دونها، قليلة الفطنة لكثير ذنوبها، قليلة الوجل والإشفاق، لما رأت من الستر"[118].

فما كان من هذه الفرقة– كما يرى المحاسبي– إلا الغرور بستر الله لها مما جعل العوام يظنون بها الإخلاص. ولهذا تعتقد هذه الفرقة "أن الله عز وجل عنها راض، وأنه لو كان سخط عليها بما أسلفت من الذنوب لما ستر عليها، ولا حببها إلي كثير من الناس، ولا نشر لها الثناء، فهي مغترة بذلك غير متفقدة لأنفسها، ولا تكاد تظن بها أكثر ذنوبها، قليل خوفها وحذرها"[119]. فقد كانت هذه الفرقة ممن يدعون التصوف، لا يعرفون من الحياة الروحية مع الله شيئاً. فيرائي الواحد منهم الناس مغتراً في ذلك بما يقول ويفعل "لأنه أظهر الدعاء إلي الله عز وجل وهو فار منه، وأنه كان يخوف بالله وهو له آمن، ويذكِّر بالله وينساه، ويقرب إلي الله عز وجل ويتباعد منه، ويحض علي التوكل علي الله وهو غير واثق به، وعلي الرضا عنه وهو ساخط عليه، وعلي الإخلاص له وهو معامل لغيره"[120].

وبعدما قام المحاسبي بتوجيه النقد لهذه الفرقة؛ فإنه كعادته يتجه إلي النصح والإرشاد. فقرر أنه لا يتسنى لهذه الفرقة إدراك ما وقعت فيه من غرور؛ إلا بأن تدرك أنها غفلت عن معني الإمهال والستر من الله عليها؛ كما غفلت عن استدراج الله لها. ولهذا استوجب الله علينا الإخلاص وطهارة النفس، وهذا لا يتحقق إلا بتفقد كل إنسان لنفسه. حيث لا يأمن أن يكون ذلك استدراجاً من ربه عز وجل "فلا يعد الستر إلا توكيداً للحجة عليه، واستدراجاً له"[121]. وبذلك يدرك الإنسان أنه ربما يكون "الستر عليه حجة من الله عز وجل عليه، ليُعلمه أنه لم يعجل عليه ولم يهتك ستره، ليستحى من ربه عز وجل، الذي ستر قبيحة، وأظهر له من الجميل ما لم يعلمه"[122]. ولهذا يستوجب المحاسبي علي هذه الفرقة أن تعرف أن الله استوجب علينا ألا نطلب بطاعته إلا رضاه؛ ورضاه في تحقيق الإخلاص. وعلامة الإخلاص في العمل أنه "لو اطلع عليه جميع العباد لم يتغير عن حاله التي هو عليها، فيتنقل من حاله التي لم يكن فيها خاشعاً إلي الخشوع، ولا يزداد في خشوعه ولا يسر باطلاعهم علي خشوعه إن كان خاشعاً"[123]. فالإخلاص يعد أهم صفة لأصحاب الفرقة الناجية، إذ ينبني عليه تحقق الخوف والثقة والتوكل والورع والتقوى والصوم والزهد.

سابعاً: مفهوم المحاسبي للفرقة الناجية:

مما سبق يتبين أن أصحاب الفرقة الناجية– عند المحاسبي– هم من انتفت عنهم كل شبهات الكبر والعجب والرياء والغرور. فتفقدوا أنفسهم وأدركوا أن النجاة في نفي الشبهات والآفات؛ فتحقق لهم الإخلاص لله عز وجل في القول والفعل،

في الباطن والظاهر، في السر والعلن. فالإخلاص الحقيقي هو "أن يكون الحق والجيد خالصاً صافياً من كل ما يشبهه. فكذلك التخليص في العمل لله عز وجل هو: نفي الخطرات، وترك القبول للرياء، واعتقاد الإخلاص، فيكون عملاً خالصاً بعد ما يميز من الرياء، وعزله منه، ونفي الرياء أن يخالطه"[124]. وتأسيساً علي ما سبق فإن أصحاب الفرقة الناجية هم أهل السلامة من فتن العجب والكبر والرياء والجرأة علي الله تعالي والإصرار علي معصيته. فهم المستمسكون بكتاب الله وسنة نبيه، والإخلاص في القول والعمل، وإيثار الآخرة علي الدنيا. وفي ذلك قال: "فقيض لي الرءوف بعباده قوماً، وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة علي الدنيا. ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى. ووجدتهم مجتمعين علي نصح الأمة، لا يرجّون أحداً في معصيته، ولا يقنِّطون أحداً من رحمته"[125]. وقال أيضاً: "ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزل، أن سبيل النجاة: في التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه. والورع في حلاله وحرامه، وجميع حدوده. والإخلاص لله تعالي بطاعته. والتأس برسوله صلي الله عليه وسلم"[126].

ومما تقدم من نقد المحاسبي لطوائف عصره من الزهاد والصوفية؛ لم يتضح لنا تحليله لصفات الفرقة الناجية إلا بعد أن حدد آفات كل هؤلاء وعيوبهم. وبذلك لم يكن نقده من أجل النقد؛ بل قام ببيان حقيقة كل مسألة أشار إليها. ودليلنا علي ذلك قوله: "هذه الأمة تفترق علي بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية، والله أعلم بسائرها. فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، واستدل علي طريق الآخرة بإرشاد العلماء"[127].

فأساس سلامة الفرقة الناجية يتحدد عند المحاسبي في العلم بالله؛ إذ هو أساس السلامة من مضلات الفتن التي تعرض لها كثير من الفرق، فالفرقة الناجية

هي التي علمت وعملت بما علمت. حيث إن ازدياد العلم– في تصور المحاسبي– يتناسب طردياً مع ازدياد الخوف والخشية والتواضع والصدق والإخلاص، وغيرها من صفات الفرقة الناجية. مما يؤكد أن "أهل المعرفة بالله بنوا أصول الأحوال علي شاهد العلم، وتفقهوا في الفروع... وعلامة ذلك هو تزايد العلم بالإشفاق، ومزيد العلم بالاقتدار، فكلما ازداد علماً ازداد خوفاً، وكلما ازداد عملاً ازداد تواضعاً. والأصل الذي بنوا به في طريقهم: التزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصدق، وتقديم العلم علي حظوظ النفوس، والاستغناء بالله عن جميع خلقه"[128]. فمن عمل بما علم هان عليه شأن الخلق، وحاز الخوف والتوكل والرضا والإخلاص والورع والزهد. وبهذا يؤكد المحاسبي أن العلماء بالله وبحقوقه هم أصحاب الفرقة الناجية، "ومنهم فرقة علمت العلم، وعملت بمعانيه في حقوق الله عز وجل التي تحقُّ لله عز وجل علي عباده، من حقه وحبه، وخوفه ورجائه، وحسن التوكل عليه، والرضا بقدره، ومعاني ما ذم الله ونهي عنه من الأخلاق الدنية والمذمومة عنده، كالرياء والعجب والكبر والحسد وسوء الظن، وأشباه ذلك من أعمال القلوب، ومن الكذب والغيبة"[129].

ومن ثم يكون العالِم الحقيقي أو الفقيه المخلص– في تصور المحاسبي– هو من حاز العلم والإخلاص والوجل والخوف من الله؛ فهو "تارك لما كره الله عز وجل، عامل بما أحب الله عز وجل، لما وقر في قلبه من الفقه عن الله عز وجل، لأنه مزعج له عن كل ما كره مولاه، باعث له علي القيام بحقه"[130]. لأنه "متفقد حق الله سبحانه في ظاهره، وباطنه، وعلانيته وسريرته، واهتم بمعرفة ذلك من نفسه فلم يغمّ عليه ذنوبه دون معرفتها، ولم يقنع بمعرفتها دون تركها من خشية الله عز وجل، فهو مهتمٌّ بالعمل فيما علم وَفَقَه"[131]. فالمخلص من هان عليه شأن الخلق، فلم يخفهم فيداهنهم فيكتم ما علمه الله من حكمته[132].

وبذلك يتبين أن الفرقة الناجية في تصور المحاسبي هي التي تحققت بالإخلاص؛ أي علمت العلم وعملت به. فمسمي الفرقة الناجية في نظر المحاسبي لا تختص به طائفة دون طائفة؛ حيث إن موضوعيته جعلت مميزات الفرقة الناجية متاحة لكل صنف من أصناف البشر حتى لا يتحزب لأي منهم. فأصحاب الفرقة الناجية هم من تحققوا بمراعاة حقوق الله في الظاهر والباطن، بالقلب والجوارح. فيتحقق العبد في كل العبادات بالصدق والإخلاص و"الورع والتقوى والزهد والصبر والرضي والقناعة والتوكل والتفويض واليقين وسلامة الصدر"[133].

خاتمة الدراسة:

توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها ما يلي:

1. أن المحاسبي كان حريصاً علي نقد جميع الآفات التي حصلت من طوائف عصره. فغاية هذا الاتجاه لديه هو إيضاح وتحليل مغالطات الرياء والغرور التي انتابت أراء بعض الفرق وأحوالهم والتي اتخذت من مظاهر النساك وآثارهم سبباً للشهرة وخداع بعض الناس. فلا يتفقد أحدهم نفسه من التقوى والإخلاص؛ مع إظهاره للتزهد والتوكل والورع والخوف والصوم والجوع والخلوة والعزلة والإخلاص. وبذلك لم يتجاوز بنقده حدود النقد الموضوعي؛ التي تقوم علي إيضاح الجيد؛ وإظهار الرديء واجتثاثه. فالتصوف الصحيح في نظر المحاسبي لابد أن يظل بعيداً عن مظاهر الغرور والرياء؛ حيث اعتمد في توجيه نقده علي العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.
2. أن المحاسبي قد انتقد الفرقة التي ترائي الناس بما يظهر منها من العلم بالله. فأثبت المحاسبي أن العلم بالله هو أساس السلامة من مضلات

الفتن التي تعرضت لها الكثير من الفرق، وبهذا تكون الفرقة الناجية هي التي علمت وعملت بما علمت. وقد أثبتت الدراسة أن ازدياد العلم يتناسب طردياً مع ازدياد الخوف والخشية والتواضع والصدق والإخلاص، وغيرها من صفات الفرقة الناجية.

3. أن المحاسبي قد انتقد بعض الفرق التي ضلت السبيل في فهمها لحقيقة التوكل ومنهم شقيق البلخي وأصحابه. وأثبت المحاسبي أن التوكل والثقة بالله لا يتنافي مع الحذر من العدو؛ كما أن الحركة في طلب الرزق– بما فيها من الأخذ بالأسباب– لا تتنافي مع صدق التوكل علي الله. وهو بهذا ينتقد فرقة شقيق وأصحابه؛ ويتفق كثير من صوفية الإسلام معه في ذلك. كما ربط المحاسبي بين الورع وصلاح النفس؛ ولهذا انتقد الفرق التي اهتمت بإظهار الورع وهم بهذا يظنون أنهم قد وصلوا إلي أعلي الدرجات بما تمسكوا به من مظاهر خارجية فقط. كما انتقد الفرقة التي أساءت الفهم لمعنى الإخلاص، حتى اتخذت من العزم عليه سبيلاً في العجب والرياء.

4. أن المحاسبي قد انتقد بعض الفرق التي ترائي الناس بما يظهر منها من الصوم. وأقر المحاسبي بأن الصوم هو سبيل البشر لتطهير النفس وتزكيتها، وليس سبيلاً للشهرة بين الناس. كما أن أفضل الجوع هو (جوع المنع)؛ وذلك ما دعاه إلي انتقاد (جوع التكلف).

5. أن المحاسبي قد انتقد بعض الفرق التي ترائي الناس بما تدعيه من إخلاص. فالإخلاص –في تصور المحاسبي– هو أهم صفات الفرقة الناجية، إذ ينبني عليه تحقق الخوف والجوع والتوكل والورع والتقوى والصوم والزهد. فالمخلص هو من تفقد نفسه وخالف شهواته وأهوائه.

6. وجود كثير من أوجه الاتفاق في الآراء بين المحاسبي وبعض معاصريه؛ ومنهم: ذو النون المصري، وسهل التستري، والقشيري.

7. أن الغزالي قد أفاد من المحاسبي في كثير من الآراء النقدية التي وجهها لطوائف عصره؛ حتى إنه جعل من مؤلفات المحاسبي مصادر أساسية لتصوفه، واتجاهاته النقدية.

هوامش الدراسة:

(1) "السلمي" أبو عبد الرحمن: طبقات الصوفية، تحقيق الدكتور أحمد الشرباصي، دار الشعب، القاهرة، 1998م، ص 21،22. وانظر أيضاً:"محمود" عبد الحليم: أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي، دار المعارف، القاهرة،1992م، ص 29: 98. وانظر أيضاً علاقة المحاسبي بالجنيد؛ "محمود" عبد الحليم: سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي، دار المعارف، القاهرة، 1999م، ص 40.

(2) "الغزالي" أبو حامد: "الغزالي" أبو حامد: المنقذ من الضلال، مكتبة الجندي، القاهرة، بدون تاريخ، ص 43.

(3) "القشيري" عبد الكريم بن هوازن: الرسالة القشيرية، تحقيق معروف مصطفي زريق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،2001م،ص 429. وانظر أيضاً: "شاخت" جوزيف و"بوزورث" كليفورد: تراث الإسلام، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، والدكتور إحسان صدقي العمد، ومراجعة الدكتور فؤاد زكريا، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، عالم المعرفة، 1998م، ص 68، 69.

(4) "التفتازاني" أبو الوفا الغنيمي:مدخل إلي التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر، القاهرة،1979م،ص 106.

(5) "المحاسبي" أبو عبد الله الحاث بن أسد: الرعاية لحقوق الله، الرعاية لحقوق الله، تحقيق خيري سعيد، الطبعة الخامسة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ، ص 412.

(6) "المحاسبي" الحارث: المواعظ، جمعها صالح أحمد الشامي،المكتب الإسلامي،بيروت، 1994م، ص 28.

(7) (الكبر): ظن الإنسان أنه أكبر من غيره، والتكبر إظهاره ذلك، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالي، ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذباً. والكبر يتولد من الإعجاب، والإعجاب يتولد من الجهل بحقيقة المحاسن، والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة. انظر:"السهروردي" شهاب الدين: عوارف المعارف، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، 2000م، ص 68، 69.

(8) "المحاسبي" الحارث: القصد والرجوع إلي الله، ضمن مجموعة مؤلفات للمحاسبي تحت عنوان الوصايا، تحقيق وتعليق وتقديم عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986م، ص 243.

(9) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، تحقيق خيري سعيد، الطبعة الخامسة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ، ص 342.

(10) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق، ص 146.

(11) "المحاسبي" الحارث:المصدر السابق، ص 147. لدراسة أهمية لبس الصوف عند الصوفية انظر: "عبد الرازق" مصطفي: التصوف، ماسينيون، ومصطفي عبد الرازق، ترجمة إبراهيم خورشيد، وعبد الحميد يونس، وحسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان،1984م، ص65.

(12) " الغزالي" أبو حامد: أصناف المغرورين، دراسة وتحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن للطبع والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 67. فقد أقر الغزالي بأن الجوارح إنما استعملت لتطهير القلب وتزكيته، والقلب خلق يتأثر بالمواظبة علي أعمال الجوارح . ولمزيد من الإيضاح انظر: "الغزالي" أبو حامد: الاقتصاد في

الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988م، ص 32. وقد قام الغزالي بتحليل الأمور التي قد تلتبس علي ابن آدم في فصل أسماه التباس الحق بالباطل، انظر: "الغزالي" أبو حامد: مكاشفة القلوب، دار المنار، القاهرة، 1998م، ص 225، 226 .

(13) "الغزالي" أبو حامد: إحياء علوم الدين، تحقيق سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران، الجزء الرابع، دار الحديث، القاهرة،1998م، ص 314، 315.

(14) "دنيا" سليمان: الحقيقة في نظر الغزالي، دار المعارف، الطبعة الرابعة، 1980م،ص 344.

(15) " الغزالي" أبو حامد: أصناف المغرورين، ص 69. ولتفصيل منهج الغزالي النقدي، انظر "التفتازاني" أبو الوفا الغنيمي: مدخل إلي التصوف الإسلامي، ص 167.

(16) "السهروردي" شهاب الدين: عوارف المعارف، الجزء الثاني، ص 160. وقد انتقد ابن الجوزي كل من اتخذ من اللباس سبباً للشهرة بالزهد. فقد يجمع ذلك الثوب وصفين الشهرة والشهوة، وبها يشتهر صاحبها أنه من الزهاد. انظر:"ابن الجوزي"الحافظ أبي الفرج: تلبيس إبليس، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ، ص 182.

(17) "المحاسبي" الحارث:الرعاية لحقوق الله، ص 408.

(18) "المحاسبي" الحارث:المصدر السابق، ص 290.

(19) "الذماري" الإمام يحيي بن حمزة اليماني: تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب، اعتني به وخرج أحاديثه عمرو سيد شوكت، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، 2007م، ص 144. ولمزيد من الإيضاح حول بيان أسباب الكبر عند الصوفية انظر: "الذماري" الإمام اليماني: المصدر السابق، ص 149: 165.

(20) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، ص 409.

(21) "الكلاباذي" أبو بكر محمد بن إسحاق: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق وتعليق الدكتور عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 199م، ص 93. وانظر أيضاً:"حلمي"محمد مصطفي: حديث العقل والقلب،

مجلـة الإسـلام والتصـوف، العـدد الأول، دار القـاهرة للطباعـة، 1959م، ص16 : 19.

(22) "الأصفهاني" الراغب: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، المكتب الفني للنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص4، 5.

(23) "الرفاعي" الإمام أحمد: حالة أهل الحقيقة مع الله، تحقيق صلاح عزام، دار الشعب، القاهرة،1972م، ص60.

(24) "الطوسي" أبو نصر السراج: اللمع، حققه وقدم له وخرج أحاديثه الدكتور عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، 1960م، ص 516.

(25) "الطوسي" أبو نصر السراج: اللمع ، ص 523.

(26) "الطوسي" أبو نصر السراج: المصدر السابق، ص 529.

(27) " السكندري" ابن عطاء الله: لطائف المنن، وضع حواشيه وخرج أحاديثه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ب.ت، ص 84. وانظر أيضاً:"التفتازاني" أبو الوفا الغنيمي: مقام الزهد عند الصوفية، مجلة الإسلام والتصوف، العدد الأول، دار القاهرة للطباعة، 1959م، ص 32.

(28) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، ص 409.

(29) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 411.

(30) المصدر السابق ، ص 412.

(31) المصدر السابق ، ص 413. ولمزيد من الإيضاح حول تحليل الصوفية لظاهرة العجب بالدين انظر: "الذماري" الإمام يحيي بن حمزة اليماني: تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب، ص 165: 167.

(32) "المحاسبي" الحارث : الرعاية لحقوق الله، ص 412.

(33) "المحاسبي" الحارث : المصدر السابق، ص 399، 400. وانظر: "المحاسبي" الحارث : شرح المعرفة وبذل النصيحة، حققه وعلق عليه مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، 1993م، ص 33.

(34) "المحاسبي" الحارث:الرعاية لحقوق الله، ص 415.

(35) "المحاسبي" الحارث:المصدر السابق ، ص 148.

(36) "المحاسبي" الحارث:القصد والرجوع إلي الله، ص 242.

(37) "المحاسبي" الحارث:الرعاية لحقوق الله، ص 415.

(38) "المحاسبي" الحارث:القصد والرجوع إلي الله، ص 247.

(39) "المحاسبي" الحارث:الرعاية لحقوق الله، ص 403.

(40) "المحاسبي" الحارث:المصدر السابق، ص 389. وانظر تحليل الحارث المحاسبي للأمن والغفلة، "المحاسبي" الحارث: معاتبة النفس،تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الاعتصام للنشر، القاهرة، 1986م، ص 34:36.

(41) "المحاسبي" الحارث:الرعاية لحقوق الله، ص 393.

(42) "المحاسبي" الحارث:المصدر السابق ، ص 396.

(43) "المحاسبي" الحارث:شرح المعرفة وبذل النصيحة، حققه وعلق عليه أبو مريم مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، 1993م، ص 62.

(44) "المحاسبي" الحارث:رسالة المسترشدين، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثانية، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 1384هـ، 1964م، ص 171 .

(45) "المحاسبي" الحارث:الرعاية لحقوق الله، ص 416.

(46) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 417.

(47) "المحاسبي" الحارث:القصد والرجوع إلي الله، ص 310.

(48) "المحاسبي" الحارث:آداب النفوس، ويليه كتاب التوهم، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الثانية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1991م، ص 141.

(49) "المحاسبي" الحارث:الرعاية لحقوق الله، ص 161.

(50) "المحاسبي" الحارث:المصدر السابق ، ص 164.

(51) المصدر السابق ، ص 397.

(52) "المحاسبي" الحارث:المكاسب، تحقيق وتصحيح سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون للنشر والتوزيع، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص 13.

(53) "المحاسبي" الحارث:المصدر السابق ، ص 14.

(54) سورة : الذاريات، الآية (22 ، 23).

(55) سورة : طه ، الآية (17 ، 18).

(56) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 15 ، 16 .

(57) "الطوسي" أبو نصر السراج: اللمع، ص 524.

(58) "القشيري" عبد الكريم بن هوازن: الرسالة القشيرية، ص 44.

(59) "المحاسبي" الحارث:المكاسب، ص 16 ، 17.

(60) " الغزالي" أبو حامد: أصناف المغرورين، ص 70.

(61) "المحاسبي" الحارث:الرعاية لحقوق الله، ص 73 ، 74.

(62) "المحاسبي" الحارث:المصدر السابق ، ص 19.

(63) المصدر السابق ، ص 20.

(64) المصدر السابق ، ص 21.

(65) المصدر السابق ، ص 23.

(66) المصدر السابق ، ص 28.

(67) المصدر السابق ، ص 28.

(68) سورة: البقرة ، الآية(267).

(69) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 30.

(70) المصدر السابق ، ص 30.

(71) المصدر السابق، ص 30.

(72) المصدر السابق ، ص 31. وانظر أيضاً: "محمود" عبد الحليم : أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي، ص 279: 291.

(73) "المحاسبي" الحارث:المصدر السابق ، ص 32.

(74) "المحاسبي" الحارث:آداب النفوس، ص 145.

(75) "المحاسبي" الحارث:المكاسب، ص 32.

(76) "المحاسبي" الحارث:آداب النفوس، ص142.

(77) "القشيري" عبد الكريم: الرسالة القشيرية، ص 164.

(78) "القشيري" عبد الكريم: المصدر السابق ، ص 166. وانظر : "محمود" عبد الحليم: العارف بالله ذو النون المصري، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،1980م، 62، 63.وانظر:" الأهواني" أحمد فؤاد: القيم الروحية في الإسلام،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ،القاهرة، بدون تاريخ، ص 88: 95.

(79) "القشيري" عبد الكريم: المصدر السابق ، ص 163. وانظر أيضاً: "ابن قيم الجوزية" شمس: الفوائد، مكتبة المتنبي،القاهرة، ب. ت. ص 81. وانظر"محمود" عبد الحليم: أبو يزيد البسطامي، 119: 123.

(80) "القشيري" عبد الكريم : المصدر السابق ، ص 164.

(81) " السكندري" ابن عطاء الله: القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، تخريج وتعليق محمود توفيق الحكيم، مكتبة مدبولي، 2002م، ص 30 .

(82) " السكندري" ابن عطاء الله: التنوير في إسقاط التدبير، تحقيق وتعليق موسى محمد علي، وعبد العال أحمد العرابي، دار التراث العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1973م، ص260 .

(83) "المحاسبي" الحارث: القصد والرجوع إلي الله، ص 235 ، 236.

(84) "المحاسبي" الحارث: المكاسب، ص 35.

(85) "المحاسبي" الحارث: القصد والرجوع إلي الله، ص 237.

(86) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، ص 25 ، 26.

(87) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 82.

(88) المصدر السابق، ص 411.

(89) المصدر السابق ، ص 390.

(90) المصدر السابق ، ص 24.

(91) "المحاسبي" الحارث: بدء من أناب إلي الله، ص 336.

(92) "المحاسبي" أبي عبد الله الحاث بن أسد: كتاب التوبة، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1977م، ص 27. وانظر أيضاً: "المحاسبي" الحارث: بدء من أناب إلي الله، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولي، 1991م، ص27.

(93) "المحاسبي" الحارث: كتاب التوبة، ص 29.

(94) "المحاسبي" الحارث: النصائح، تحقيق وتعليق وتقديم عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986م، ص142.

(95) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، ص 184.

(96) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 88.

(97) المصدر السابق ، ص 146.

(98) "المحاسبي" الحارث: المكاسب، ص 66.

(99) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، ص 91.

(100) السهروردي" شهاب الدين: عوارف المعارف، الجزء الثاني، ص 147. وانظر أيضاً: "محمود" عبد الحليم : العبادة أحكام وأسرار، دار الشعب، القاهرة، 2001م، ص 364.

(101) "الجزار" أحمد محمود: الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، الطبعة الثانية، مطابع دار الوزان للطباعة والنشر، القاهرة، 1988م، ص 82.

(102) "المحاسبي" الحارث: المكاسب، ص 65.

(103) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 65.

(104) المصدر السابق، ص 65، 66.

(105) "المحاسبي" الحارث: كتاب التوبة، ص 38.

(106) "المحاسبي" الحارث: المكاسب، ص 66.

(107) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، ص 398.

(108) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 399.

(109) المصدر السابق ، ص 398.

(110) "المحاسبي" الحارث: المواعظ، ص 23.

(111) "الترمذي" الحكيم: كتاب الرياضة وأدب النفس، عني بإخراجه الدكتور ا. ج. آربري، والدكتور علي حسن عبد القادر، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، 1947م، ص 48. وانظر: "النووي" أبو يحيي زكريا: بستان العارفين، حققه وعلق عليه محمد الحجار، دار الصابوني، القاهرة، بدون تاريخ، 174.

(112) "قاسم" محمود: الإمام عبد الحميد بن باديس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة،1979م، ص129.

(113) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، ص 75.

(114) "الكلاباذي" أبو بكر محمد بن إسحاق: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 99.

(115) "محمود" عبد الحليم : بشر الحارث الحافي، دار المعارف، القاهرة، 1994م، ص 72.

(116) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، ص 418.

(117) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 418.

(118) المصدر السابق ،ص 419.

(119) المصدر السابق ، ص 419.

(120) المصدر السابق ، ص 402.

(121) المصدر السابق ، ص 421.

(122) المصدر السابق ، ص 420.

(123) المصدر السابق ، ص 258.

(124) المصدر السابق ، ص 170.

(125) المصدر السابق ، ص 31.

(126) المصدر السابق ، ص 29.

(127) "المحاسبي" الحارث: المواعظ، ص 27.

(128) "المحاسبي" الحارث: رسالة المسترشدين، ص 99-101 . العلم في تصور المحاسبي علي ثلاثة أنواع: نوع علم الحلال والحرام وهو علم أحكام هذه الدار وهو العلم الظاهر. ونوع آخر وهو علم أحكام الآخرة وهو العلم الباطن. ونوع ثالث وهو العلم بالله – سبحانه– وأحكامه في خلقه في الدارين. وأما علم أحكام الآخرة فهي العبادة الباطنة. ومنها الورع والتقوى والزهد والصبر والرضي والقناعة والتوكل والتفويض واليقين وسلامة الصدر وسخاوة النفس ورؤية المنة والنية والاحتساب والإحسان وحسن الظن وحسن الخلق وحسن المعاشرة وحسن المعرفة وحسن الطاعة والصدق والإخلاص انظر: "المحاسبي" الحاث بن أسد: كتاب العلم، حققه وقدم له محمد العابد مزالي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1975م، ص81 ، 83.

(129) "المحاسبي" الحارث: الرعاية لحقوق الله، ص 397.

(130) "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 394.

(131) المصدر السابق ، ص 396. يرجع ذلك لدي المحاسبي إلي تفاوت مراتب العلماء؛ فقد قرر أن المغترين بالعلم "فرق شتى علي قدر منازلهم فيه. فمنهم فرقة تغتر بكثرة الرواية وحسن الحفظ مع تضييع واجب حق الله عز وجل، وتخيل نفس أحدهم إليه وعدوه أن مثله لا يعذب، لأنه من العلماء، وأئمة العباد الحافظين علي المسلمين علمهم، ويعمى عليه أكثر ذنوبه". انظر: "المحاسبي" الحارث: المصدر السابق ، ص 398.

(132) المصدر السابق ، ص 396.

(133) "المحاسبي" الحارث: كتاب العلم، ص 83.

المصادر والمراجع

أولاً: مؤلفات الحارث بن أسد المحاسبي:

1- "المحاسبي" الحارث:آداب النفوس، ويليه كتاب التوهم، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الثانية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1991م.

2- "المحاسبي" الحارث: بدء من أناب إلي الله، تحقيق وتعليق وتقديم عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986م.

3- "المحاسبي" الحارث: رسالة المسترشدين، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثانية، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 1384هـ، 1964م.

4- "المحاسبي" أبو عبد الله الحارث بن أسد: الرعاية لحقوق الله، تحقيق خيري سعيد، الطبعة الخامسة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.

5- "المحاسبي" الحارث: شرح المعرفة وبذل النصيحة، حققه وعلق عليه أبو مريم مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، 1993م.

6- "المحاسبي" الحارث: القصد والرجوع إلي الله، ضمن مجموعة مؤلفات للمحاسبي تحت عنوان الوصايا، تحقيق وتعليق وتقديم عبد القادر أحمد عطا،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986م.

7- "المحاسبي" الحارث: كتاب التوبة، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1977م.

8- "المحاسبي" الحارث: كتاب العلم، حققه وقدم له العابد مزالي، الدار التونسية للنشر، تونس،1975م.

9- "المحاسبي" الحارث: معاتبة النفس، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الاعتصام للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986م.

10- "المحاسبي" الحارث: المكاسب، تحقيق وتصحيح سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون للنشر والتوزيع، الإسكندرية، بدون تاريخ.

11- "المحاسبي" الحارث: المواعظ، قام بجمعها صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1994م.

12- "المحاسبي" الحارث: النصائح، تحقيق وتعليق وتقديم عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986م.

ثانياً: المصادر العربية:

1- "الأصفهاني" الراغب: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، المكتب الفني للنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

2- "الترمذي" أبو عبد الله الحكيم: كتاب الرياضة وأدب النفس، عني بإخراجه الدكتور ا. ج. آربري، والدكتور علي حسن عبد القادر، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، 1947م.

3- "ابن الجوزي" الحافظ أبو الفرج: تلبيس إبليس، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.

4- "الذماري" الإمام يحيي بن حمزة اليماني: تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب، اعتني به وخرج أحاديثه عمرو سيد شوكت، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، 2007م.

5- "الرفاعي" الإمام أحمد: حالة أهل الحقيقة مع الله، تحقيق صلاح عزام، دار الشعب، القاهرة، 1972م.

6- " السكندري" ابن عطاء الله: التنوير في إسقاط التدبير، تحقيق وتعليق موسى محمد علي، وعبد العال أحمد العرابي، دار التراث العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1973م.

7- "السكندري" ابن عطاء الله: القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، تخريج وتعليق محمود توفيق الحكيم، مكتبة مدبولي،القاهرة، 2002م.

8- "السكندري" ابن عطاء الله: لطائف المنن، وضع حواشيه وخرج أحاديثه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

9- "السلمي" أبو عبد الرحمن: طبقات الصوفية، تحقيق الدكتور أحمد الشرباصي، دار الشعب، القاهرة، 1998م.

10- "السهروردي" شهاب الدين: عوارف المعارف، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، 2000م.

11- "الطوسي" أبو نصر السراج: اللمع، حققه وقدم له وخرج أحاديثه الدكتور عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، 1960م.

12- "الغزالي" أبو حامد: إحياء علوم الدين،تحقيق سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران، الجزء الرابع، دار الحديث، القاهرة، 1998م.

13- "الغزالي" أبو حامد: أصناف المغرورين، دراسة وتحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن للطبع والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

14- "الغزالي" أبو حامد: الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988م.

15- "الغزالي" أبو حامد: مكاشفة القلوب، دار المنار، القاهرة، 1998م.

16- "الغزالي" أبو حامد: المنقذ من الضلال، مكتبة الجندي، القاهرة، بدون تاريخ.

17- "القشيري"عبد الكريم بن هوازن: الرسالة القشيرية، تحقيق معروف مصطفي زريق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،2001م.

18- "ابن قيم الجوزية" الإمام شمس الدين أبو بكر: الفوائد، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.

19- "الكلاباذي" أبو بكر محمد بن إسحاق: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق وتعليق الدكتور عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1998م.

20- "النووي" أبو يحيي زكريا: بستان العارفين، حققه وعلق عليه محمد الحجار، دار الصابوني، القاهرة، بدون تاريخ.

ثالثاً: قائمة المراجع العربية:

1- "الأهواني" أحمد فؤاد: القيم الروحية في الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، بدون تاريخ.

2- "التفتازاني" أبو الوفا الغنيمي: مدخل إلي التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1979م.

3- "الجزار" أحمد محمود: الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، الطبعة الثانية، مطابع دار الوزان للطباعة والنشر، القاهرة، 1988م.

4- "دنيا" سليمان: الحقيقة في نظر الغزالي، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، 1980م.

5- "عبد الرازق" مصطفي: التصوف، بقلم ماسينيون، ومصطفي عبد الرازق، ترجمة إبراهيم خورشيد، وعبد الحميد يونس، وحسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، 1984م.

6- "قاسم" محمود: الإمام عبد الحميد بن باديس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة،1979م.

7- "محمود" عبد الحليم: أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي، دار المعارف، القاهرة، 1992م.

8- "محمود" عبد الحليم: سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي، دار المعارف، القاهرة، 1999م.

9-"محمود" عبد الحليم : العارف بالله بشر الحارث الحافي، دار المعارف، القاهرة، 1994م.

10- "محمود"عبد الحليم: العارف بالله ذو النون المصري، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1980م.

11- "محمود" عبد الحليم : العبادة أحكام وأسرار، دار الشعب، القاهرة، 2001م.

رابعاً: الموسوعات والدوريات:

1- "التفتازاني" أبو الوفا الغنيمي: مقام الزهد عند الصوفية، مجلة الإسلام والتصوف، العدد الأول، دار القاهرة للطباعة، 1959م.

2- "حلمي" محمد مصطفي: حديث العقل والقلب، مجلة الإسلام والتصوف، العدد الأول، دار القاهرة للطباعة، 1959م.

3- "شاخت" جوزيف و"بوزورث" كليفورد: تراث الإسلام، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، والدكتور إحسان صدقي العمد، ومراجعة الدكتور فؤاد زكريا، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، عالم المعرفة، 1998م.